محاضرات في

مصادر اللغة والأدب

إعداد

الأستاذ الدكتور

أشرف أمين جاد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

الدكتورة

إلهام الضوي تركي

مدرس العلوم اللغوية

كلية الآداب بقنا

قسم اللغة العربية

بيانات الكتاب

كلية التربية التعليم العام بقنا .

الفرقة / الثالثة.

القسم/ اللغة العربية.

المادة/ مصادر اللغة والأدب.

عدد الصفحات : مائتان وأربع صفحات.

الفصل الدراسي/ الثاني.

العام الدراسي/٢٠٢٣-٢٠٢٤م

المحتويات

المقدمة ٤

مفاهيم أساسية..... ٦

أولا ماهية المصدر والمرجع و الفرق بينهما: ٦

تعريف المخطوط :..... ١٣

ثانيا ببليوغرافيا المصنفات اللغوية والأدبية والنقدية قديما وحديثا: ١٨

دراسة في مصادر التراث العربي..... ١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لِله صاحب المن والعطاء، والصلاة والسلام على خاتم الرسل والأنبياء سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد،،،

تعد المصادر العربية المنبع الأساسي الذي يستقي منه طالب العلم مادته العلمية والمعرفية في العربية وعلومها، فهي الأساس الذي تبنى عليه الدراسات الحديثة، فمن لا يدرك كيف كان ماضيه، وكيف نبعت ثقافته، وما هي العوامل التي أثرت في إرثه العلمي والتاريخي لا يستطيع أن يعرف إلى أين يتجه به المستقبل؛ لذا فلا يمكن لباحث الاستغناء عن المصادر العربية أو عن دراستها.

وهذا الكتاب يتناول في مجمله مجموعة من المصادر العربية (اللغوية والأدبية) بالشرح والتوضيح، حيث تعرضت فيه إلى جانب التعريف بمصطلحي (المصدر و المرجع) والفرق بينهما، وببليوغرافيا المصنفات اللغوية والأدبية والنقدية قديما وحديثا، ثم تطرقت إلى دراسة المصادر في التراث العربي؛ فتناولت المعجم بأنواعه، ومجموعة من المصادر اللغوية والأدبية، كـــ كتاب (الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني)، و(الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي الجرجاني).

مفاهيم أساسية

أولا: المصدر والمرجع و الفرق بينهما.

ثانيا: ببليوغرافيا المصنفات اللغوية والأدبية والنقدية قديما وحديثا.

مدخل:

مفاهيم أساسية

ارتبطت المصادر العربية بالكثير من المصطلحات التي عمد إليها الباحثون لتفسير المصدر وتوضيحه وتقديمه للطالب أو الباحث العلمي في صورة بسيطة غير معقدة، تتوائم مع العصر الحديث التي سيطرت عليه التكنولوجيا المعرفية، فباتت هي المعين الأول للباحث العلمي، والمحرك الأساسي له؛ لذا يجدر البدء بتوضيح تلك المصطلحات، ومعرفة أهميتها في دراسة المصادر العربية (اللغوية والأدبية) .

أولا ماهية المصدر والمرجع و الفرق بينهما:

كثر الاختلاف بين العلماء والدارسين حول ماهية كل من المصدر والمرجع؛ فمن الدارسين من لا يرى فرقا بين المصطلحين ويعتبرهما دالين على مدلول واحد، بينما هناك من يفرق بينهما بل ويزيد تفريعات أخرى عنهما، فما هو المصدر؟ وماذا يقصد بالمرجع، وما الفرق بينمهما؟

المصدر يقصد به "كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتعمق، بحث يصبح أصلا، لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه"[1] كـــ(الجامع الصحيح

[1] المصادر والمراجع، محمد النعمان.

للبخاري، وصحيح مسلم) هما أصلاً ومصدران في الحديث النبوي، ومثل هذا كتاب في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام فهي كلها أصول ومصادر في بابها.

والمصدر أصدق ما يكون حين يطلق على الآثار التي تضم نصوصا(أدبية أو لغوية) لكاتب واحد أو مجموعة من الكتاب، لشاعر فرد أو لطبقة من الشعراء، أو لخليط من الكتاب والشعراء والخطباء رويت هذه الآثار شفاهية، أو دونت في كتب، أو نقشت على أبنية، ووصلنا دون تعليق على النص أو تفسير له، دون تمهيد له أو تعقيب عليه[٢] .

وهو الكتاب الذي يعالج موضوعاً بعينه، يتوافر عليه ويعالجه معالجة شاملة تستقصي جميع جوانبه في تعمق ودرس في هذا الموضوع.

وعُرف أيضا بأنه كتاب قديم في وضع العلم والمعلومات، والأساس الذي يأخذ منه المرجع.

أما عن المرجع فيعرف بأنه: "كل ما كتب ونشر متأخراً عن زمن المصدر، وكثيراً ما يكون المرجع قد أخذ عن المصدر الرئيس"[٣]، فالمرجع إذن هو كل ما يساعد في شرح المصدر الرئيس، وتوضيحه وتحليله، ، فالبحث في شعر المتنبي مثلا يجعل ديوان الشاعر وكتب من ترجم له وبحث في شعره من معاصريه أو القريبين من عصره

---

[٢] ينظر: محاضرات في مصادر التراث: محمود النوبي أحمد.

[٣] أساسيات البحث العلمي بين النظرية والتطبيق، حنان سلطان، غانم العبيدي، صـــ١٤١.

(مصادر)؛ أما (المراجع) فإنّها ما عادا ذلك مما يفيد في دراسة الشاعر وشعره مثل كتب النقد وكتب الآداب و المقالات والدراسات الحديثة .

أنواع المصادر:

يمكن التميز بين نوعين من المصادر :

١- **مصادر أساسية :** وهي التي استهدف بها أصحابها علم من العلوم أو أدب ما بعينه دون غيره من الآداب والعلوم الأخرى، كـــ(كتاب طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي، و(الشعر والشعراء) لابن قتيبة .

٢-**مصادر مساعدة:** وهي عكس المصادر الأساسية حيث تحتوي على معارف متنوعة وعلوم متجانسة؛ كـــ(كتاب الكامل في اللغة والأدب) لأبي عباس المبرد.

أنواع المراجع:

تنقسم المراجع إلى تقسيمات عدة منها:

١- **المراجع الأصلية:** و يقصد بها تلك المؤلفات التي كتبت حول المصادر في الزمن الذي صنّف فيه هذا المصدر، أو في زمن قريب منه، و مـــن ثـــمّ يصـــبح شـــرح المرزوقي لحماسة أبي تمام، أو شرح الأنباري لمفضليات الضبّي، مرجعاً أصـــليًّا لفهم هذه الأشعار.

٢- المراجع المساعدة وهي المراجع التي لا تتصل أصلًا بمادة المصدر، وفي الغالب تكون أبحاثا حديثة، تعين على تكوين فكرة ، أو تذليل صعوبة، أو تصحيح خطأ؛ لذا يمكن الإفادة منها بطريقة غير مباشرة في إلقاء الضوء على المصادر.

و قد تصنّف المراجع تصنيفًا آخرًا وفقا لقدمها و حداثتها، فيقال مرجع قديم و مرجع حديث، و المرجع الحديث يفيد غالبًا من المرجع القديم، فكتاب الكامل للمبّرد مرجعًا قديمًا في أدب الخوارج و غيره، في حين أنّ كتاب أدب الخوارج للدكتورة سهير القلماوي مرجعًا حديثًا.

الفرق بين المصدر والمرجع

استخدمت كلمتا (مراجع ومصادر) في أكثر من مجال كمصطلحين متميزين لهما دلالتهما الخاصة، واتخذتا معنيين مختلفين في الدراسات التاريخية ودراسات تاريخ الأدب والدراسات الأكاديمية، فالباحثون في هذه الدراسات يميزون بين المرجع والمصادر على أساس المباشرة والوساطة في تقديم المعلومات المتصلة بالموضوع؛ فالمصادر في نظرهم هي تلك المؤلفات أو النصوص التي وصلتنا من العصر الذي نريد دراسة أحواله، أو المؤلفات التي تكون مادة البحث، أما المراجع فهي تلك المؤلفات الثانوية أو المساعدة التي يلجأ إليها استكمالا للمعلومات حول موضوع البحث، أو للحصول على معلومات إضافية لأغراض المقارنة والربط والتحليل والتفسير، فالباحث في شعر

المتنبي مثلا يجعل ديوان الشاعر وكتب من ترجم له وبحث في شعره من معاصريه أو القريبين من عصره (مصادر) أما (المراجع) فإنها ما عادا ذلك مما يفيد في دراسة الشاعر وشعره مثل كتب النقد وكتب الأدب الأخرى و المقالات والدراسات الحديثة.

وفي مجال الدراسات الأكاديمية نجد أن (المصادر) يقصد بها الكتب والمؤلفات التي تكون مادة البحث،أما(المراجع) فإنها تعني الكتب والبحوث وغيرها مما يكون قد كتب حول موضوع البحث، فالفرق بين المصادر والمراجع يكمن في أن المصادر هي المؤلفات أو النصوص الأساسية التي يعتمد عليها في مادة البحث، أما المراجع فهي الكتب والبحوث الثانوية ويكون الاعتماد عليها أقل من المصادر[٤].

وهناك فرق آخر ذكره الدكتور عميرة وهو أن المراجع هي التي ألفت لعامة القراء؛ لتكون أقرب شيء يرجعون إليه للعلم بالشيء، أو العلم بعدة أشياء، فالمراجع وضعت لعامة القراء، أما المصادر فهي للمؤلفين والخاصة[٥].

غير أن بعض الباحثين لا يرى فرقا بين المصطلحين، وذلك بالرجوع إلى التعريف اللغوي لهما.

---

[٤] ينظر: المدخل لمصادر الدراسات الأدبية واللغوية والمعجمية القديمة والحديثة، حامد صادق قنيبي، محمد عريف الحرباوي، دار ابن الجوزي، الأردن /عمان، صـ٢٢.

[٥] البحث العلمي، عبد العزيز الربيعة، صـ٩٣.

فالمصدر هو كل ما يرجع إليه في البحث، والمرجع كذلك، والمصدر والمرجع سواء أكانا مترادفين أم أن ّ كليهما يؤدي معنى مستقلا فإنّ الباحث لا يستغني عنهما، لأنّهما عدته في أيّ بحث يقوم به، وأنّ الميزان الدقيق الذي على ضوئه يقرر عما إذا كان يرى المضي في بحثه أم أنّ المواد المجموعة في مصادره ومراجعه لا تفي بالغرض.

- **المصادر الأدبية:**

هي الأساس التي يستمد منه الباحث مادة بحثه و يأخذ عنها الكثير من أفكاره، ويقتبس منها آثار المعرفة الإنسانية فيما يريد تناوله من فكر أو موضوع، فبواسطة هذه المصادر نقف على أراء الأقدمين و المحدثين و المعاصرين، وعنها نأخذ كلما نرى من أفكار الدارسين و الباحثين و الناقدين، ومن هنا صح قول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في مقدمة كتابه " البحوث الأدبية مناهجها و مصادرها" إن المصادر الأدبية "هي الثمرة الناضجة التي يقطف منها العالم و المتعلم كل ما يشاءان"، و لما كانت المصادر الأدبية متنوعة بتنوع فنون الأدب أصبح من اللازم لدراسة المصادر الخاصة بكل فن من فنون الأدب أن تسبقها دراسة خاصة لطبيعة هذه الفنون والمجال الذي يشتغل فيه كل منها و كذلك معرفة تطورها التاريخي.

- **المصادر اللغوية :**

و ترجع جذورها إلى فترة ما بعد الفتوحات الإسلامية و سيادة اللغة العربية في بلاد واسعة ونطق الأعاجم مما أدى إلى ظهور اللحن و الخطأ في التركيب اللغوي، مما دفع العلماء إلى جمع و تدوين اللغة محافظة على لغة القرآن و الحديث، كما قاموا بوضع كتب تتعلق بالنحو و الصرف و البلاغة قصد حماية اللغة و الحفاظ على سلامة اللسان العربي.

كيف وصلت إلينا المصادر التراثية العربية ؟

اعتمد التراث على جهود العلماء ، وأمانة الوراقين ، وإسهامات رجال الخط العربي والمكتبات القديمة والمكتبات القطرية الوطنية الأم ، والمكتبات العالمية مفعمة بآلاف الكتب المخطوطة في جميع أنواع المعرفة .

فمنذ اكتشف الإنسان طريقة ما لتسجيل آثاره خَطا خُطواته الأولى نحو مدارج الحضارة ، ثم توصل فريق شرقي منه إلى اكتشاف الورق ، فبدأت المخطوطات تدون في بقاع شتى من العالم ، وكان الشرق أغزر ثرة بالمخطوطات من الغرب[1].

[1] تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة : د. على الخطيب ، ص٨ ، ٩.

تعريف المخطوط :

المخطوط : هو الكتاب المدون بخط اليد كما في كتب التراث القديمة والكتب الحديثة التي تطبع ، والمذكرات المكتوبة بالآلة الكاتبة أو الناشر المكتبي على الحاسوب ، والمصـــورة بآلة التصوير أيضاً من المخطوطات ولكن الشائع الأعم عند إطلاق كلمة مخطـــوط أنـــه كتاب تراثي قديم ، تركه مؤلفه بخط يده أو بخط غيره من الناسخين.

وهذه الكتب اعتمد فيها محققوها على ثلاثة أشياء :

١- الضبط ٢- التحرير ٣- المقابلة

فالضبط : يعنون به عملية تقويم نص الكتاب والتأكد من صحته ، وفي المعجم الوســيط في مادة "ضبط" يقول الكتاب ونحوه : أصلح خلله أو صححه وشكله.

والتحرير : وهو قد يرادف الضبط حين يراد به تقويم الكتاب والتأكد من صحته أيضـــا ، والضبط يتميز عن التحرير بأنه قد يعني الوقوف على شكل الكلمـــات وتقويمهـــا طبقـــا لقواعد النحو العربي.

عيوب المخطوطات :

أ - جهل الناسخ بمادة المخطوط لعدم تخصصه فيها.

ب- ضعف الناسخ في مادتي القراءة والكتابة.

ج- حفظ الناسخ والمداد.

والعيوب السابقة أدت إلى ظهور عيوب في المخطوطات منها التحريف ، والتصحيف، والنقص، والإدراج، وتداخل العبارات، وترك بياض، والتقديم، والتأخير في الجمل أو الفصول[١].

وقد أدرك هذه العيوب أديب العربية الموسوعي (الجاحظ ت ٢٥٥هـ) أي في القرن الثالث للهجرة فقال "لربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحاً أو كلمة ساقطة فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني أيسر عليه من ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر فيه الوراق الثاني سيرة الوراق الأول ، ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدي الجانية والأعراض المفسدة حتى يصير غلطاً صرفاً"[٢].

كيفية تحقيق كتاب تراثي: على المحقق اتباع الخطوات التالية :

١- كتابة النسخة المسودة من الكتاب المراد تحقيقه كتابة واضحة.

٢- توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه. ٣- ضبط عنوان الكتاب.

٤- ضبط اسم المؤلف. ٥- مقابلة النسخ.

---

[١] تراثنا المخطوط : ١٤.

[٢] البحث الأدبي : د. شوقي ضيف ، ٢٠٠.

٦- تقويم النص.　　٧- التخريج.

٨- التعليق.　　٩- التشكيل.

١٠-الترقيم.　　١١-التهميش.

١٢-الفهرسة.

وهناك رموز واختصارات لبعض الكلمات أو العبارات نجدها في المخطوطات القديمة ولا سيما في كتب علم الحديث ، وهذا مما سُبِقَ به أسلافنا العرب ، أو علماء العجم المتأخرون ، وقلدهم في ذلك الفرنجة :

ثنا = حدثنا　　ثنى = حدثني

نا = حدثنا ، أو أخبرنا　　دثنا = حدثنا

أرا = أنبانا ، واخبرنا

أرنا = أخبرنا ، في خط بعض المغاربة

أخ نا = أخبرنا ، في خط بعض المغاربة

أبنا = اخبرنا　　قثنا = قال حدثنا

ح = تحويل السند في حديث

صلعم = صلى الله عليه وسلم

صم = صلى الله عليه وسلم

وكتابة هذه الثلاثة مكروهة عند الفقهاء ، وقد استعملها العجم

عم = عليه السلام رضى = رضى الله عنه

المصد = المصنِّف بكسر النون

ص = المصنَّف بفتح النون ، أي المتن

شن = الشرح الش = الشارح

س = سيبويه أيض = أيضًا

لايخـــ لا يخفى ، للعجم في الكتب العربية.

الظ = الظاهر

مم = ممنوع ، للعجم في الكتب العربية

م = معتمد ، أو معروف ، استعمل الأخيرة صاحب القاموس ومـــن بعده

إلخ = إلى أخره اهـــ/ اه = انتهى ، أو إلى نهايته

ع = موضع ، استعمله صاحب القاموس ومن بعده

ج = جمع ، استعمله صاحب القاموس ومن بعده

جج = جمع الجمع ، استعمله صاحب القاموس ومن بعده

ججج = جمع جمع الجمع ، استعمله صاحب القاموس ومن بعده

ة = قرية ح = الحنيفة ، أو الحلبي

حج ابن حجر الهيثمي في كتب الشافعية

م ر = محمد الرملي ع ش = على الشبراملسي

ز ى = الزبدي ق ل = القليوبي

شو = خضر الشوبري س ل = سلطان المزاحي

ح ل = الحلبي ع ن = العناني

ح ف الحفني ا ط = الإطفيحي

م د = المدابغي ع ب = العباب

سم = ابن أم قاسم العبادي

ح = حينئذ ، في كتب الحديث وكتب الحنفية

ح = الحلبي عند الحنفية

لا يمكن لطالب اللغة العربية وآدابها التخصص العلمي في علـــوم العربيـــة عنـــد القدامى ، إلا بالإلمام الواسع بالمصادر التراثية وهي في مجاله :

- المصادر اللغوية الأم.
- المصادر الأدبية والنقدية والبلاغية (الأصول الأم).
- المصادر الدينية الأم (القرآن وعلومه ، والحديث وعلومه).

وفي مرحلة الدراسات العليا يتعمق الدارس ، أو الباحث في قراءة متخصصة فـــي أي نوع من الفروع الآنفة ، بحيث يميل أو يتجه في دراسته أو بحثه إلى مخطوطة يحققها أو موضوع يتناوله في عصر من العصور القديمة منذ صدر الإسلام إلى قُبيـــل العصـــر الحديث.

ثانيا ببليوغرافيا المصنفات اللغوية والأدبية والنقدية قديما وحديثا:

أولا التعريف اللغوي والاصطلاحي لكلمة (ببليوغرافيا) :

البيبليوغرافيا: كلمة غير عربية دخلت إلى اللغة العربية عن طريق حركة الترجمة والتعريب في العصر الحديث، وهي في الإنجليزية (Bibliography) ، وهي كلمة من اللغة اليونانية، مركبة من كلمتين هما : (Biblio) وتعني الكتيب ، وهي صورة مصغرة للمصطلح (Biblios) بمعنى كتاب، و(Graphia)هي اسم فعل مأخوذ من

كلمة (Graphein)، بمعنى ينسخ أو يكتب، وعند تركيبهما معاً تصبح الكلمة(Bibliographia)، وقد كانت هذه الكلمة تعني ــ منذ ظهورها خلال العصر الإغريقي وحتى القرن السابع عشر " نسخ الكتب " وظلت تحمل هذا المدلول إلى أن تحول معناها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من " نسخ الكتب" أو " كتابة الكتب " إلى " الكتابة عن الكتب[٦] .

وفي الاصطلاح:

تعرف الببليوغرافيا بأنها علم وصف الكتب بما في ذلك أسماء وألقاب المؤلفين وعناوين الكتب وأرقام الطبعات وبيانات النشر (دار النشر ومكانه والبلد الذي ينتمي إليه، وعدد الصفحات وسنة النشر وغيرها من المعلومات المتعلقة بالكتاب والببليوغرافية هي أيضا "علم وصف الكتب والتعريف بها ضمن حدود وقواعد معينة..." وقد جرت محاولات عربية ــ في العصر الحديث ــ بديلة لكلمة ببليوغرافيا مثل كلمة (ورّاقة) و(ثبت) ولكنها لم تلق هذه الكلمات رواجا ولا قبولا من المكتبيين العرب ،وبقيت كلمة ببليوغرافيا هي السائدة في الوسط العلمي والجامعي [٧].

---

[٦] ينظر: المدخل إلى علم الببليوغرافيا، أبو بكر محمود الهوش، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، طرابلس ١٩٨١، الطبعة الأولى ، صـــ١٣.

[٧] ينظر : أصول البحث العلمي ومناهجه، أحمد بدر ، الطبعة الرابعة، وكالة المطبوعات الكويت ، توزيع دار القلم بيروت، ١٩٧٨م، ص ١٧٠.

بيبليوغرافيا المصنفات اللغوية والأدبية والنقدية قديما وحديثا:

الجدير بالذكر في هذا المجال أنه منذ أكثر من عشرة قرون خلت ألّف الأديب وكاتب السيرة محمد ابن إسحق البغدادي المعروف بابن النديم كتاب (الفهرست) الذي جمع فيه كل ما صدر من الكتب والمقالات العربية في زمنه، وكتب الأديان والفقه والقانون وتحدث عن مشاهير الملوك والشعراء والعلماء والمفكرين، معلنا بذلك ظهور علم جديد سيلقى ابتداءا من أواخر القرن ١٦م في أوروبا اهتماما بالغا، هذا العلم هو (البيبليوغرافيا).

المصنفات القديمة:

أولا اللغوية:

- **أساس البلاغة :**

لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨) هـ دار الكتب المصرية، ألفه لغرض بلاغي من أجل توضيح المعاني المجازية للألفاظ؛ لهذا فهو يذكر الألفاظ الأكثر فصاحة في اللغات، ويقدم

المعـــنى الحقيقـــي للفـــظ أولاً ثم يثـــني بـــذكر المعـــاني المجازية أو ما تعارف عليه القوم منها، وقد رتب الزمخشري معجمه هذا ترتيب أبجدي مع مراعاة أول الكلمة[٨].

- **فقه اللغة :**

لأبي منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي النيســـابوري (٤٢٩ هـــ) قســـمه إلى ثلاثـــين بـــاباً، كتاب في فقه اللغة والنحو، وهو كتابين في كتاب واحد " فقه اللغة" "وسر العربية" جمعا في كتاب واحد لتقارب موضوعهما واتحاد مؤلفهما، وقد ذكر المؤلف في الكتاب فوائد المعاني شارحا غريبها واضعا المسميات على المعاني ورادا المعاني الى المسميات، شارحا الصفات الواردة في اللغة العربية ويتسم الكتاب بدقته وشموله وقد تمت فهرسته فهرسة علمية.

- **ألفية ابن مالك :**

والمسماة أيضاً بـــ «الخلاصة»، هي متن شعري من نظم الإمام محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، وهـــي مـــتن يضـــم غالـــب قواعـــد النحـــو والصـــرف العـــربي في منظومـــة شـــعرية يبلـــغ عـــدد أبياتها ألـــف وبيتـــان، أبيـــات علـــى وزن

---

[٨] ينظر: قراءة في معجم أساس البلاغة للزمخشري، وسام اليونس، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، تاريخ النشر: ٢٠٢٢/٤/١،

https://www.hnjournal.net/3-4-20/.

بحـــر الرجز أو مشطوره، و حظيت الألفية بقبول واسع لدى دارسي النحو العـــربي، والطبعـــة الأولى طبعـــت بـــدار الكتـــب العامـــة بيروت سنة ١٩٨٥م[٩].

وهناك عدة مصادر لغوية أخرى نذكر منها ما يلي- : *

- الصحاح للجوهري.
- القاموس المحيط للفيروز أبادي.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لعلي المقري الفيومي .
- الكتاب لسيبويه.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها لجلال الدين السيوطي .
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لأبي البركات الأنباري.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين الأنصاري .
- مفتاح العلوم للسكاكي .
- التلخيص لجلال الدين القزويني .
- الأضداد للأنباري .

---

[٩] ألفية ابن مالك في النحو والصرف، محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، دار الكتب العامة، بيروت، ط٢ ،١٩٨٥م، صـــ٣.

* لمزيد من التفاصيل عن عناوين ومختصرات أهم المصادر التراثية يمكن للطالب قراءة تفصيلية في
١- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان (أجزاء).
٢- تاريخ التراث العربي لفؤاد سيزكين (مجلدات).
٣- دائرة المعارف الإسلامية لمجموعة من الباحثين.

- إصلاح المنطق لابن السكيت .
- البارع للقالي .
- تاج العروس للزبيدي.
- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي.
- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري.
- مجمل اللغة لابن فارس.
- تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري.

ثانيا الأدبية:

- **البيان والتبيين:**

لعمرو بن أبي عثمان الجاحظ (٢٥٥ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، يعد البيان والتبين من أواخر مؤلفات الجاحظ، وهو كتاب في الأدب يتناول فيه موضوعات متفرقة، مثل الحديث عن الأنبياء، والخطباء والفقهاء، والحديث عن البلاغة واللسان والشعر، والرد على الشعوبية واللحن والحمقى والمجانين، ووصايا الأعراب ونوادرهم، والزهد، وغير ذلك، ومع كثرة الموضوعات التي تناولها الكتاب إلا أنه يمكن القول بأن للكتاب موضوعا رئيسا يسيطر عليه إلى حد بعيد، وهو الذي يوجه الكاتب إلى اختيار مختاراته، وهذا

الموضوع الرئيس هو استنباط أصول البيان كما تحدث فيها السابقون، وكما مارسها عمليا علماء الكلام ومن بينهم الجاحظ نفسه.

الكامل في اللغة والأدب:

لمحمد بن يزيد أبي العباس (٢٨٥هـ) الملقب بالمبرِّد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، من المصادر الأدبية العامة كذلك على غرار البيان والتبيين، حيث يعد من أبرز الكتب الموسوعية في طليعة القرن الثالث الهجري ، فهو كتاب في اللغة والأدب والتصريف، حتى التأريخ للتيارات الفكرية، إذ يجمع بين قضايا أدبية وأخرى لغوية ومادته يطغى عليها الإخبار، كما أنه عالج مسائل ذات طبيعة نقدية صرفة أبرزها مسألة الضرورة الشعرية.

الأغاني :

لعلي بن الحسين ابن فرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) تحقيق عبد الستار فراج، دار الثقافة، بيروت ١٩٥٥-١٩٦١م، يعد من أمهات كتب التراث العربي، فهو موسوعة أدبية وتاريخية، تتضمن تراجم وأخبار الشعراء والمغنيين، حيث استقى الألحان الموسيقية الشائعة في عصره، وكذا الأشعار التي تصاحب هذه الألحان، وفي هذا السياق يستعرض كثير من الأخبار ويطرح قضايا لغوية وتاريخية ونقدية، كما تتضمن بعض الأحداث التاريخية التي أثرت في مجريات التاريخ العربي، قبل الإسلام

وبعده، ومن ثمّ لا يمكن لباحث في التراث العربي الاستغناء عن هذا المصدر الأصيل الذي يعد أغنى كتب عصره في أخبار الجاهلية و الإسلام وبني أمية .

والمصادر الأدبية القديمة كثيرة جدا ومتنوعة نذكر منها ما يلي- :

- كتاب الحيوان للجاحظ .

- عيون الأخبار لابن قتيبة .

- النوادر للقالي .

- زهرة الآداب وثمرة الألباب للحصري القيرواني .

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي .

- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري .

-كتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي .

- البخلاء للجاحظ .

- كليلة ودمنة لابن المقفع .

-كتاب المحاضرات والمحاورات للسيوطي .

- مقدمة ابن خلدون.

- الأصمعيات للأصمعي .

- المفضليات للمفضل الضبي .

- جمهرة أشعار العرب للقرشي .

ثالثًا النقدية:

طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي :

من أقدم كتب النقد الأدبي ، ومؤلفه من أوائل النقاد الذين اعتنوا بالشعر والشعراء؛ فهو أول من خص النقد الأدبي بدراسة مستقلة بعد أن كان جُملا وفقرات متناثرة في بطون الكتب، ويظهر تأثر الجمحي بالأصمعي في هـذا الكتـاب، غير أن كتاب الجمحي يقدم مادة شعرية ونقدية مهمة، كما أن مقدمته مـن أنجـح مـا وصـل إلينـا مـن النصـوص النقديـة، حيث عرض فيها مقاييس النقد المختلفة في عصره.

الشعر والشعراء لابن قتيبة:

(ت ٢٧٦ هـ) هذا الكتاب من مصادر الأدب الأولى في تراجم الشعراء، إلا أنه لم يحرص على استيفاء الشعراء وتقصِّهم وحصرهم بل اقتصر على مشاهيرهم، فـأورد

أخبـــارهم ومـــا يســـتجاد من شعرهم وما أخذته عليهم العلماء من الخلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم، ويمتاز الكتاب بمقدمة نقدية قيمة تعد من بواكير النقد الأدبي المعلل.

نقد الشعر:

لقدامه بن جعفر الكاتب البغدادي (٣٣٧هـــ) تحقيق كمال مصطفى، القاهرة، سنة ١٩٦٣ م، يطـــرح فيـــه تعريفـــا للشـــعر ويحـــاول تحليـــل هـــذا التعريـــف بثقافـــة عميقـــة جعلـــت بعـــض الدارســـين يـــردون جـــذورها إلى الفكـــر اليونـــاني، وخاصـــة فلســـفة أفلاطـــون الـــتي تـــرى أن الأشـــياء الحســـية مـــا هـــي إلا أشـــباح لحقيقتهـــا الكلية.

وهناك عدة مصادر نقدية أخرى نذكر منها ما يلي :

- المثل السائر لابن الأثير.

- العمدة في صناعة الشعر ونقده – أبي علي ابن رشيق.

- عيار الشعر: ابن طباطبا .

المصنفات الحديثة

أولًا اللغوية:

الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس

يعد أول مؤلف في علم الأصوات في العالم العربي المعاصر، من حيث بيان منهجه وإظهار مدى توظيفه لمعطيات علم الأصوات المعاصر في الدراسة الصوتية العربية، وللكتاب أهمية كبيرة في الدرس الصوتي العربي، خاصّة أنه أضاف الكثير من وجهات نظر علماء الغرب، لقد كان إبراهيم أنيس ملماً إماما تاما بالدراسات اللغوية التراثية، والتي اعتمد عليها كثيرا في إرساء دعائم نظرياته الجديدة، وقد أشار إلى ظاهرة تطور الأصوات، وذكر في كتابه الأصوات التي أصابها التطور، وأكثر من أستفاد منه قديما هو العالم اللغوي ابن جني، وخاصة كتابه(سر صناعة الإعراب)[١٠]

مبادئ في اللسانيات

لخولة طالب الإبراهيمي، وهذا الكتاب هو حوصلة عن تطور التفكير اللساني منذ ظهور دروس دي سوسير إلى يومنا هذا، و هو يدرس أهم القضايا التي طرحتها اللسانيات عند تناولها لظاهرة اللسان بالدراسة والتحليل، وقد تناولت فيه

---

[١٠] ينظر: جهود إبراهيم أنيس الصوتية من خلال كتابه الأصوات اللغوية، محمد يحي آدم، رسالة ماجستير ، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، صـ١٨.

أهـــم المـــذاهب اللســـانية الغربيـــة، ولكـــن الوقت نفسه حرصت على الوقوف عند وجهة نظر المدرسة الخليلية الحديثة، تلك المدرسة التي تطمـــح إلى ربـــط الماضـــي بالحاضـــر، وتقـــترح قـــراءة جديـــدة تجديديـــة لتراثنـــا اللغـــوي العـــربي في ضـــوء النظريـــات والمبـــادئ العلميـــة الحديثـــة، ونشـــر الكتاب وطبـــع في دار القصـــبة، الطبعة الثانية سنة٢٠٠٠م[١١] .

ومن المصنفات اللغوية الحديثة أيضا:

-دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر.

- دراسات في اللغة والمعاجم، حلمي خليل .

- ظاهرة الأعراب في النحو العربي، محمود سليمان ياقوت .

- علم الأصوات، كمال بشر .

- في علم اللغة، محمد محي الدين أحمد .

- دراسات في الدلالة والمعجم، رجب عبد الجواد إبراهيم .

- تحقيقات نحوية، فاضل الساكري .

---

[١١] ينظر: مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، دار القصبة ، ط ٢، ٢٠٠، صـــ٥.

- علم اللسانيات الحديثة، عبد القادر عبد الجليل .

- مبادئ علم اللسانيات الحديث، شرف الراجحي .

- علم الدلالة، أحمد مختار عمر .

- اللغة والكلام أبحاث في التداخل، أحمد كشك .

- التطبيق الصرفي، عبده الراجحي .

- تجديد النحوي، شوقي ضيف .

- الأصوات ومرض التخاطب، عبد المنعم عبد القادر الميلادي .

- درس السيميائي المغاربي، مولاي علي أبو حاتم .

ثانيا: المصنفات الأدبية:

- **دراسات في الأدب العربي :**

لمحمد مصطفي هدارة، طبع ونشر بدار العلوم العربية، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠- هـ ١٩٩٠. م، يضم هذا الكتاب بحثا موجزا عن الشعر العربي الحديث ومراحل تطوره، وقد جعل محمد مصطفي هدارة كتابه ينقسم إلى قسمين :

الأول: المختص ببحوث الشعر بفنونه المختلفة الغنائية والقصصية والمسرحية.

والثاني: يهتم ببحوث النثر وبفنونه المتعددة من دراسة أدبية، إلى رواية مسرحية[١٢].

- **دراسة في مصادر الأدب:**

لأحمد الطاهر مكي، وقد اعتنى هذا الكتاب بالمصادر النادرة التي قلما يعرض لها الدارسون ولم يعرفون عنها شيئا، طبع ونشر في دار الفكر العربي سنة ١٤١٩- هـ ١٩٩٩م في طبعته الثامنة[١٣].

ومن المصنفات الأدبية الحديثة أيضا:

- طلائع المقارنة في الأدب العربي الحديث، عصام بهي .

- في الشعر العربي حسين نصار .

- دراسات في الأدب الجاهلي ، عبد العزيز نبوي .

- في الأدب العباسي فوزي عيسى .

---

[١٢] ينظر: دراسات في الأدب العربي: محمد مصطفي هدارة، دار العلوم العربية، ط١ ،١٩٩٠م، ص٠٧.

[١٣] ينظر: دراسة في مصادر الأدب، أحمد الطاهر مكي، دار الفكر العربي، ط٨ ،١٩١٩ /١٩٩٩م، ص ٨.

- أثر الأدب الشعبي في الأدب الحديث، حلمي بدير .

- في الأدب الجزائري الحديث محمد بن سمين .

- في مصادر الأدب فوزي عيسى.

ثالثا المصنفات النقدية:

- **مناهج النقد الأدبي المعاصر لصلاح فضل:**

تضمن هذا الكتاب عددا من المحاضرات عن مناهج النقد المعاصر، ألقاها المؤلف على طلاب الدراسات العليا، وهي أميل إلى التبسيط والشرح دون التدقيق في المصادر أو التأنق في العرض، فابتعدت بذلك عن الأكاديمية مقتربة من إملاءات طه حسين ومحمد مندور على وجه الخصوص، ما يجعلها تتسع لتتجاوز دائرة المتخصصين إلى عامة المشتغلين بالأدب والثقافة، والكتاب يضع خريطة كلية للمشهد النقدي في الثقافة العربية والعالمية ، ويمكن تقسيمه إلى ثلاث أجزاء رئيسة، الأول يعرض لمفهوم المنهج، والثاني لمنظومة المناهج التاريخية، بينما الثالث يعرض لمنظومة المناهج الحديثة، وطبع بدار النشر أطلس للنشر والإنتاج والتوزيع بالقاهرة سنة 2005 [١٤].

[١٤] ينظر : مناهج النقد الأدبي المعاصر، صلاح فضل، دار النشر أطلس للنشر والإنتاج والتوزيع ،القاهرة، 2005 م، ص3

في النقد والأدب: لإيليا الحاوي:

كان هذا الكتاب يحمل عنوان (نماذج في النقد الأدبي) وعدلوا عنوانه فأصبح (في النقد الأدبي)، وقسم إلى أجزاء، وعدّلت مادته وفقا للعصور، وكان يحتوي على نماذج مجزوءة قليلة الأبيات بكثرة، وبعض النماذج الكاملة من القصائد الكبرى، وطبع بدار الكتاب اللبناني، بيروت [١٥] .

ومن المصنفات النقدية الحديثة أيضا:

- مناهج البحث في الأدب والنقد، خفاجي محمد عبد المنعم.
- قراءات في النقد والأدب، مصطفي البشير قط.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، عبد العزيز عنيق.
-دراسات في النقد الأدبي المعاصر، محمد زكي العشماوي.
-النقد الأدبي، أحمد أمين.
- نظرية النقد الأدبي الحديث، يوسف نور عوض.

[١٥] ينظر: في النقد الأدبي، إيليا الحاوي، ج1 ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط4 ، ص5

دراسة في مصادر التراث العربي

من المصادر العربية (المعجم وأنواعه)

دراسة في مصادر التراث العربي

أولا المعجم وأنواعه*

لم تعرف اللغة العربية التصنيف إلا عندما بدأ العرب بوضع نتاجهم الفكري والعلمي في أواخر القرن السابع الميلادي، فنشطت المؤلفات التي تتناول مناحي المعرفة، وبدأ عصر التدوين يطبع الحياة بالعمق، لاسيما أن العرب عرفوا اختلاطا كبيرا بعد الفتح وامتداد توسعات الدولة العربية الإسلامية، وبسبب هذا الاختلاط فشا اللحن، وشاع فساد الألسن، حينها اهتم العرب بواضع قواعد لغوية تحكم هذا الخلط ، كذلك قاموا بنقط القرآن الكريم.

ومن المعروف أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من شكَّل المصحف، ومفاد هذا أنه سمع ذات يوم قارئا يقرأ :" أن الله بريء من المشركين، ورسوله" بخفض رسوله، فانزعج لهذا كثيرا، وكان زياد بن أبيه قد سأله أن يعمل شيئا يبعد به الخطأ عن الناس، فاعتذر منه، فعاد إليه، وقال له" أفعل ما أمر به الأمير، فليبغني كاتبا لَقِنا يفعل ما أقول، فأتى بكاتب من عبد القيس، فلم يرضى، فأتى بآخر...، فقال أبو الأسود: إذا رآيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه أي أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من الحرف؛ فهذا نقط أبي الأسود الدؤلي، وفي رواية مشابهة أخرى أنه مر بالدؤلي رجل فارسي من أهل زندخان اسمه سعد، وكان قد جاء

* ينظر : نشأت المعاجم العربية وتطورها (معاجم المعاني، معاجم الألفاظ)، ديزيره سقال، دار الصداقة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥.

الكوفة مع بعض أهله؛ فاقتربوا من قدامة بن مظعون، وادعوا أن إسلامهم كان على يديه، فهم موالٍ له، ومر سعد بفرسه بأبي الأسود، فقال له : ما لك يا سعد، لِمَ لا تركب؟ فأجاب: إن فرسي ضالع- وأراد (ظالعا) فضحك من كلامه بعضهم، فقال أبو الأسود:هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام، ودخلوا فيه، فصاروا لنا إخوة؛ فلوا علمنا لهم الكلام، فوضع باب الفاعل والمفعول.

رأي المستشرقين

ويعلق أحمد أمين على هذا قائلا:"...من قال إن أبا الأسود وضع النحو فقد كان يقصد شيئا من هذا ، وهو أنه وضع الأساس بضبط المصحف، حتى لا تكون فتحة موضع كسرة، ولا ضمة موضع فتحة ، فجاء بعد من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق، فاخترع تقسيم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، والاسم إلى ظاهر ، ومضمر ، وغير ظاهر ولا مضمر، وباب التعجب وباب إنَّ.

وقد سار جمع اللغة عند العرب في مراحل ثلاث تطورت باتجاه المعجم الشامل:

١- المرحلة الأولى جمع العرب أثنائها الكلمات من غير أن يتبعوا طريقة محددة، فقد كان الأصمعي مثلا يقصد الأعراب فيسمع منهم اللفظ الغريب ويدونه في ألواحه، إلى أن اشتهر اسمه بالغريب، بل قيل أنه لم يكن بسماع الأعراب ومناقشتهم، حتى كان يملء الراحة من كلامهم.

وكان الذين نُقلت اللغة عنهم، واقتُدي بهم، وأُخذ اللسان العربي عنهم من بين القبائل العرب هم؛ قيس وأسد وتميم؛ ثم هذيل، وبعضها كِنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم، كما ذكر الفارابي.

وقد رأي العرب أن الكلمة تنطق بها جملة قبائل خير من الكلمة التي تنطق بها قبيلة واحدة، وأنها إذا وردت على القياسين الصرفي والنحوي كانت أفضل من غيرها وأفضل، وإذا رواها علماء كثيرون كانت أصح من الكلمة التي يرويها عالم واحد.

٢-جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد؛ كالألفاظ المتعلقة بالمطر، أو بالدواب، أو بالغيم، أو ما إلى ذلك، مما شكل في فيما بعد ما يسمى(معاجم المعاني).

٣- جمع كل الكلمات العربية بطريقة معينة، وعرفت هذه المرحلة بمرحلة المعاجم المجنسة.

لفظة المعجم[١٦]:

أُخذت لفظة معجم من عبارة (حروف المعجم) التي عرفت بها حروف الهجاء، وهي الحروف التي تتميز عن سواها بالنقط، على أن أحداً لا يدري يقينا متى ظهرت لفظة

---

[١٦] اختلف العلماء في جمع مادة معجم، لكنهم أجمعوا على أن أصح الجموع هو مُعجَمَات؛ لأن الوصف من اسمي الفاعل والمفعول يجمع جمعا سالما لا مكسرا، على أن مصطفي جواد قاس الجمع على مفاعيل، فقال(معاجيم)، مثل مرسل (مراسيل)، إلا أن الجمع معاجم هو الشائع، استعمله ممن استعمله الأب أنستاس ماري الكرملي، وما لبث ناصر الدين الأسد أن صوبه قياسا على نظائره، مثل مصحف، مصاحف، حسين نصار ، المعجم العربي (الموسوعة الصغيرة(٨٠)، منشورات دار الجاحظ للنشر ، وزارة الثقافة والإعلام بغداد، ١٩٨٠، صـــ٦،٧.

معجم، ويبدو أنها أطلقت في ميادين أخرى، ثم انتقلت من بعد إلى اللغة، والملاحظ أن أقدم استعمال لهذه اللفظة كان في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي؛ فقد روي أن شخصاً يدعى حُبيشا وضع (كتاب الأغاني على حروف المعجم) للخليفة العباسي المتوكل، وأن برزخ بن محمد العروضي وضع (كتاب معالي العروض على حروف المعجم)، بيد أن المشتغلين بالحديث استعملوا لفظ معجم بهذا المعنى قبل سواهم، فوضع أبو يعلي أحمد بن علي بن المثني كتابا أسماه(معجم الصحابة)، ووضع أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغويِّ كتابيه(المعجم الكبير) و(المعجم الصغير)، وبعد ذلك أطلقت هذه اللفظة على الكتب اللغوية التي تعالج الألفاظ، فتتناول مداليلها، وكل ما يتصل بها لغويا، أو التي تجمع الألفاظ المتصلة بمعنى أو بموضوع احد في رسالة أو كتاب، أو باب من كتاب.

نوعا المعاجم

على هذا تنقسم المعاجم إلى نوعين: معاجم الألفاظ، يقال لها أيضا المعاجم المجنسة، وهي تتناول ألفاظ اللغة كلها بلا تمييز، ومعاجم المعاني، ويقال لها أيضا المعاجم المبوّبة، وهي ما جمعت الألفاظ المتصلة بموضوع واحد؛ كموضوع المطر ، أو الجياد، أو شواذ اللغة أو ما إلى ذلك.

معنى لفظة معجم

يقول كتاب (العين) في مادة عجم: العَجَمَ ضد العرب، ورجل أعجمي (ليس بعربي)...، وامراء عجماء: بينة العجمة...، والعجماء: كل صلاة لا يُقرأ فيها، والأعجم: كل كلام ليس بلغة عربية... والمعجم : حروف الهجاء المقطعة، لأنها أعجمية، وتعجيم الكتاب: تنقيطه كي تستقين عجمته ويصح" ، وهنا يقول ابن جني: "ثم إنهم قالوا أعجمت الكتاب إذا بينته وأوضحته"، ويقول: "ألا ترى أن تصريف (ع ج م) أين وقعت في كلامهم إنما هو (للإبهام) وضد البيان"، ويقول ابن منظور "الأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه، وإن كان عربي النسب" وأعجمت الكتاب: ذهبت به إلى العُجمة، وقالوا حروف المعجم، فأضافوا الحروف إلى المعجم.

وقد روعي معنى التيسير في نقط الأحرف لإعجام الكتاب، وهذا ما اعتُمد عندما حصرت ألفاظ اللغة، وشُرحت مفراتها في تلك الكتب اللغوية الخاصة، فقد رتبت أبجديا وفقا لحروف الهجاء، أي بحسب الحروف المعجمة، فأطلقت لفظة معجم على هذين المعنيين، فالمعاجم ترتب بحسب حروف الهجاء، ووظيفتها إعانة الباحث في التعرف إلى اللفظة وشرح مدلولاتها، أو تُيسر له وسيلة العثور على مجموعة من الألفاظ التي يجمعها موضوع واحد؛ ولذلك نجد هذين اللونين من المعاجم.

وقد يطلق على هذا النوع من كتب اللغة اسم القاموس، وإن لم يكن بعض علماء اللغة يرضى بهذه التسمية، والقاموس اسم أطلقه الفيروزآبادي على معجمة(القاموس المحيط)

قاصداً به البحر المحيط باللغة ، يقول لسان العرب" والقاموس والقَوْمَس: قعر البحر، وقيل وسطه ومعظمه..." وبهذا المعنى قولهم:"غرق في قاموس البحر" يريدون في قعره الأقصى، وكذلك" قال فولان قولا بلغ قاموس البحر"، ويرى المعجم الوسيط أن القاموس: "البحر العظيم، وهو علمٌ على معجم الفيروزآبادي، وهو كل معجم لغوي على التوسع"، أما صاحب محيط المحيط فيشرح معنى الكلمة شرحا وافيا، يقول: "القاموس البحر وأبعد موضع فيه غوراً، ووسطه، ومعظمه...والقاموس كتاب الفيروزآبادي في اللغة العربية، لقبه بالقاموس المحيط لاتساعه، وبُعد غوره، ومنه نسمي كل كتاب في اللغة مشتمل على مفرداتها مرتبة على حروف المعجم، مع ضبطها وتفسير معانيها بالقاموس، وهو من اصطلاح المولّدين، ويرادفه عند العرب اللغة؛ فإنهم يسمون القواميس بكتب اللغة، وتجمع هذه الكلمة على قواميس.

ثانيا: معاجم المعاني

مقدمة و تعريف:

قلنا إن معاجم المعاني تسمى أيضا المعاجم المبوبة، و أنها كانت أسبق إلى الظهور من المعاجم المجنسة، ذلك لأن جمع المادة اللغوية قد ترافق مع جمع مادة الأدب .

و لقد جعل عبد المجيد الحر المعاجم المبوبة ستة أنواع هي ، بحسب أنماطها :

١-نمط الندرة و الغرابة ، أي ما جمع أصحابه فيه الألفاظ الغريبة النادرة كـــ(كتاب أبي زيد الأنصاري " النوادر في اللغة).

٢-الموضوعات و المعاني، و هي ما جمع فيه أصحابه ألفاظ اللغة المتعلقة بموضوع من الموضوعات، أو بمعنى من المعاني ككتاب " الاجناس " للأصمعي ، و كتاب " المطر " لأبي زيد الأنصاري ، و مجموع هذه الكتب عبارة عن رسائل صغيرة .

٣-الأضداد ، و هي ما جمع أصحابه فيه الألفاظ التي وردت بمعنيين متناقضين ، ككتاب "الأضداد " للأصمعي الذى جاء فيه ، على سبيل المثال : (صرد) صرد السهم أخطأ، و صرد أصاب و نفذ .

٤- ثلاث حركات بمعان مختلفة ، ككتاب " مثلثات قطرب " ، و من هذا قولنا الحلم (بفتح الحاء) أي الجلد الفاسد ، و الحلم (بكسر الحاء أي الوقار ، و الحلم (بضم الحاء) أي ما يراه النائم .

٥-الأفعال ذات الاشتقاق الواحد ، و هي ما جمع فيه أصحابه الأفعال التي تأتي على اشتقاقين بمعنى واحد ، ككتاب (فعلت و أفعلت) للزجاج .

٦-الحروف ، و هو ما جمع من الألفاظ و رتب بحسب الحروف ككتاب " الهمز " لأبي زيد الأنصاري .

و يمكن أن نضيف إلى هذه الأنواع المذكورة أنواعا أخرى ، مثل الكتب التي جمعت مرادفات لغوية ، أو عبارات لها معنى واحد ، أو أسماء للأصوات ، و ما إلى ذلك ككتاب " فقه اللغة " للثعالبي ، و كتاب " الألفاظ الكتابية " للهمذاني ، و الكتب التي جمعت الألفاظ المختلفة اللفظ ذات المعنى المشترك ، أي المرادفات ، ككتاب " ما اختلفت ألفاظه و اتفقت معانيه " للأصمعي ، و الكتب التي جمعت الحروف و درست معانيها و ودلالتها اللغوية ، ككتاب " معاني الحروف " للرماني ، و كتاب " ليس في كلام العرب " لابن خالويه ، و غير ذلك .

٢- عرض لبعض معاجم المعاني :

في ما يلي ، سنعرض بعض معاجم المعاني ، و نوزعها على ثلاثة أنواع :

١-النوع الأول يتناول مفردات اللغة و معانيها المختلفة، و نتمثل عليه بكتاب " ما اختلفت ألفاظه و اتفقت معانيه" ، و بكتاب " غريب اللغة " للأنباري ، و بكتاب " ما جاء على فعلت و أفعلت بمعنى واحد مؤلف على حروف المعجم " للجواليقي .

و يتناول أيضا ما اختلفت ألفاظه من المفردات بإبدال بعض الأحرف و التقت معانيه، و نتمثل عليه بكتاب " الإبدال و المعاقبة و النظائر " للزجاجي .

٢-النوع الثاني يتناول جمعا للمفردات التي تفيد الاشتراك في بعض المعاني و توزيعها على طوائف من الأبواب ، و نتمثل عليه بكتاب " الألفاظ الكتابية " للهمذاني ، و بكتاب " فقه اللغة " للثعالبي .

٣-النوع الثالث يتناول بعض الشئون اللغوية الصرف، و نتمثل عليه بكتاب " ليس في كلام العرب " لابن خالويه ، بكتاب " معاني الحروف " للرماني .

١-أ- " ما اختلفت ألفاظه و اتفقت معانيه " للأصمعي :

يجمع الأصمعي في هذا الكتاب الألفاظ التي لها مدلول مشترك في اللغة، و هي بمنزلة المرادفات ، و الكتاب عبارة عن رسالة من مجموعة رسائل بلغ عددها الخمس عشرة، ويحاول الأصمعي من خلاله إبراز المعنى الواحد من خلال مجموع الألفاظ ، يقول مثلا " يُقال طمح فلان في السوم " ، إذا استام أكثر مما يساوى ، و تشحي في السوم ، و أبعط و شحط في السوم ، كل ذلك : تباعد.

و يقال أمر بني فلان أمم ، إذا لم يجاوز القدر ، و أمرهم مؤام ، و يقال للأمر إذا غلب و اشتد : انتشر و نشأ و اشتغر " ، إلخ ... و يمضي الأصمعي في ذكره الألفاظ كذلك ، و قد يستشهد على كلامه ببعض الأمثال الشائعة عند العرب ، كقوله : " و يقال :

مصع الظبي بذنبه و لألأ ، و مثل من الأمثال : لا أفعل ذلك ما لألأت العفر و الفور ، و هي الظباء ، أي لا أفعل ذلك أبدا ". و ربما استشهد ببعض الأبيات على كلامه ، كقوله: " و يقال للسقاء و الوطب و الزق إذا كان عظيما : سبحل ، و جحل ، و سبحلل و حضجر .

و أنشد :

إذا شئت غنائي على رحل قينة حضجر يداوى بالبرود ، كبير

و قال أبو النجم :

يترك مسك الأقران السبحللا يمج فوق الشجر المثملا

و الرغوة تسمي الثمالة ، و هو ما ارتفع عن رأس اللبن إذا حلبت الشاه

و يمضى الأصمعي على هذا المنوال حتى آخر كتابه ، و لكنه لا يبوب الكلمات بحسب الأحرف الأبجدية ، و لا بحسب المعاني تباعا ، بل يرسلها إرسالا و بشيء كثير من الفوضى و عدم الترتيب .

١-ب-" غريب اللغة " للأنباري:

يجمع المؤلف في هذا الكتاب الألفاظ التي كانت غريبة في أيامه – أي في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي – ، و قد حشد فيه ما يزيد على أربعمئة و سبع و

تسعين كلمة من الغريب ، و نظمها بشكل مرسل لم يتقيد فيه بشيء . يقول ، مثلا : " الجزار: السيف القاطع ، و الكهام ، و الحذل : انسلاق العين ، حذل يحذل حذلا : إذا انسلقت من بكاء أو غيره .

و ما الأوار و الأوام – و الأيام و الرعل .

الأوار : احتراق الجوف و شدة تلهبه ، نلاحظ هنا أن المؤلف لا يراعي الترتيب الأبجدي ، مثلا في ترتيب الكلمات ، و لا الترتيب الصوتي (أي الشبيه بالذي اعتمده الخليل بن أحمد فيما بعد و يختص بعمة الأحرف الصوتية)، بل أرسل مفرداته كيفما اتفق ، و تكون الكلمات أحيانا شديدة التباعد في المعنى نفسه ، كأن ينتقل من ألفاظ بعض الأصوات مثلا إلى معنى آخر مختلف تماما ، يقول : " العرار : شجرة لها ثمرة صفراء ، و العرار: صوت الظليم ، و هو الذكر من النعام ، و الزمار : صوت الأنثى، و الخطل : الخطأ، فلا علاقة معنوية هنا بين الشجرة الصفراء الثمر و صوت الحيوان ، و لا بينهما و بين الخطأ ! و يسير الكتاب على هذا المنوال ، و هو بمنزلة شرح القصيدة منظومة طويلة لامية على مجزوء الرجز .

١–ج–ما جاء على فعلت و أفعلت بمعنى واحد للجواليقي :

يورد الجواليقي في هذا الكتاب الألفاظ المشتركة في المعنى و التي تأتي على وزنين مختلفين هما فعل و أفعل أحدهما مجرد و الآخر مزيد ، و بمعنى آخر ينقل لنا المؤلف هنا

إمكانات تكون فيها أفعل بمعنى فعل ، و فعل بمعنى أفعل ، و هذا أمر معروف في اللغة العربية ، بيد أن المؤلف يرتب كتابه بحسب حروف المعجم ، فيوزع الألفاظ توزيعا ألفبائيا، مبتدئا بالحرف الأول من الكلمة ، على النحو التالي : يقول ، مثلا : برد الله الأرض و أبردها إذا أصابها البرد ، بت عليه الحكم و أبه إذا قطعه ، و كذلك بت الحبل و أبته .

بطؤ الرجل في الأمر و أبطأ بطاءه . الخ ....ثم ينتقل إلى حرف التاء ، فيقول : " تم الله عليه النعمة و أتمها إذا أسبغها ، تبع الرجل الشيء و أتبعه .

تربت الكتاب و أتربته تعسه الله و أتسعه " و قد يستشهد ببعض الأبيات .

يقول ، مثلا : " جمعت الشيء و أجمعته .قال أبو ذؤيب :

فكأنها بالجزع بين نبايع و ألاث ذي العرجاء نهب مجمع

و ربما أورد بعض الأمثال العربية نقلا عن بعضهم : " قال الأصمعي :

تقول العرب لا آتيك ما سمر أبناء سمير و أسمر أي ما اتختلف الليل و النهار.....".

لكن اللافت أن الجواليقي يذكر بعض الألفاظ أحيانا و يهمل شرحها كتلك التي وردت في باب التاء ، و قد ذكرناها : و ربما كان هذا لأنه رأى أن تلك الألفاظ بسيطة – في عصره – و لا تحتاج إلى شرح .

١-د-الإبدال و المعاقبة و النظائر للزجاجي :

أراد الزجاجي أن يورد في كتابه " الكلمات و النظائر التي يقع بينها التبادل و التعاقب " ، أي الكلمات المتماثلة التي يتغير فيها حرف و لا يتغير فيها المعنى ، نحو : علا و علو و على ، و حاث ، باث ، و المساءلة و المسايلة و المساولة، و عنوان و عنيان و علوان .

و على هذا ،فإن الزجاجي يورد الكلمات المشتركة في المعنى التي يطرأ على حرف منها تغير أو إبدال ، و قد يكون هذا الحرف معتلا أو غير معتل ، أي أن الإبدال و التعاقب قد يطرأ ان على حرفين معتلين ، أو على آخر غير معتل ، كما نلاحظ في مساءلة و مسايلة حيث أبدلنا الهمزة ياء وواوا ، أو بين حرفين غير معتلين كما هي الحال في عنوان و علوان حيث أبدلنا النون لاما.

و كثيرا ما يستشهد المؤلف بأبيات الشعر لدعم حجته أو باللآيات القرآنية ، مثال على ذلك قوله : " و هو يوم عك و أك ، و عكيك و أكيك : أي حار ، و قال طرفة :

تطردُ القرَّ بحرٍّ صادقٍ وعكيكَ القيظ إن جاءَ بقُرّ

و قوله : " هم الناس و النات ، قال الراجز :

يا قبح الله بنى السعلاة

عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا بسادات و لا أكيات

يريد الناس و أكيات

بيد أن عددا مما أورد الزجاجي من إبدال هو ضرب من اللغات التي عرفها العرب ، و منه ما أوردنا في المثال الثاني من استعمال الراجز " النات " و " أكيات " فهذا لغة عند بعض العرب، و تحديدا عند طيىء، يقال لها الوتم ، و قد جعلها السيوطي من اللغات المستقبحة .

و قد أرسل الزجاجي ما اختار من كلمات إرسالا ، و لم يرتبه على حروف المعجم ، فصار البحث عن الكلمات صعبا ، كما أنه لم يشرح و لم يعلق على كثير من كان بحاجة إلى تعليق و شرح .

٢-أ- فقه اللغة للثعالبي :

يذكر الثعالبي في مقدمة كتابه أن الإلمام بأسرار العربية و دقائقها أمر ضروري لكل من أحب العرب و الاسلام . يقول : " و العرب خير الأمم ، و العربية خير اللغات و الألسنة ، و الإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هي أداة العلم ، و مفتاح التفقه في الدين، و سبب إصلاح المعاش و المعاد ، ثم هي لإحراز الفضائل ، و الاحتواء على المروءة و سائر أنواع المناقب ، كالينبوع للماء ، و الزند للنار ؛ و لو لم يكن في الإحاطة بخصائصها ، و الوقوف على مجاريها و مصارفها ، و التبحر في جلائلها و دقائقها ، إلا

قوة اليقين في معرفة إعجاز القرآن ، و زيادة البصير في إثبات النبوة الذى هو عمدة الإيمان ، لكفي بها فضلا يحسن أثره ، و يطيب في الدارين ثمره ، فكيف و أيسر ما خصها الله عز و جل من ضروب الممادح ما يكل أقلام الكتبة ..."

و يمضي الثعالبي في كتابه فيقسمه فصولا ، يحاول في كل فصل منها أن يتكلم على مسألة من دقائق اللغة ، و الدقة في استعمال بعض الكلمات ، كقوله في " فصل عن ابن قتيبه " : " ولد كل سبع جرو . ولد كل طائر فرخ . ولد كل وحشية طفل ، و كل ذات حافر نتوج و عقوق ، و كل ذكر يمذى و كل أنثي تقذى " ، و قد يقيم مقارنات لغوية بين الكلمات كما جاء في قوله : في أحد الفصول : " الوعورة في الجبل كالوعوثة في الرمل . العمي في العين مثل العمه في الأي ، البيدر للحنطة بمنزلة الجرين للزبيب و المريد للتمر " ، و قد يورد أسماء بعض الأشياء مجتمعا ، كقوله : " الحصي صغار الحجارة ، الفسيل صغار الشجر ، الأشاء صغار النخل ، الفرش صغار الإبل (و قد نطق به القرآن) ، النقد صغار الغنم ، الحفان صغار النعام (و عن الأصمعي) ، الحبلة صغار المعز (عن الليث) .... و ربما أورد المصادر التي استقى منها كلامه على النحو الذى رأينا ، و قد يورد ألفاظا متضادة باسم واحد كما جاء في " فصل في تسميه المتضادين باسم واحد من غير استقصاء يقول : " الغريم المولى . الزوج . البيع . الوراء يكون خلف و قدام ".

والصريم الليل و هو أيضا الصبح لأن كلا منهما ينصرم عن صاحبه . الجلل اليسير و الجلل العظيم لأن اليسير قد يكون عظيما عند ما هو أيسر منه و العظيم قد يكون صغيرا

عند ما هو أعظم منه ...." ، و ربما وقعنا على بعض الفصول ذات الطبيعة الصرفية التي تتطرق إلى أوزان اشتقاقية ، كما هي الحال في " فصل في أبنية دالة على معان في الأغلب الأكثر و قد تختلف " ، حيث جاء ، على سبيل المثال : " ما كان على فعلان دل على الحركة و الاضطراب كالنزوان و الغليان و الضربان و الهيجان . و ما كان على فعلان دل على صفات تقع من أحوال كالعطشان و الغرثان و الشبعان و الريان و الغضبان .

و ما كان على أفعل دل على صفات بالألوان نحو أبيض و أحمر و أسود و أصفر و أخضر و كذلك العيوب تكون على أفعل نحو أزرق و أحول و أعور و أقرع و أقطع و أعرج و أخيف ...." و بعض فصول الكتاب له طبيعة بلاغية ، حيث يتكلم على ضروب من الصور المعبرة ، كما في " فصل في التشبيه بغير أداة التشبيه " و حيث يتكلم في مكان آخر على الإتباع أو على تأكيد المدح بما يشبه الذم، و غير هذا من أمور ككلامه على الاستعارة و التجنيس أو الجناس و الكناية .....

لكن الصعوبة في هذا الكتاب ناتجة من سوء ترتيبه ، فلا الثعالبي رتبه بحسب المعاني متدرجة ، و لا بحسب طبيعة المادة ، و لا بحسب حروف المعجم .

٢-ب-الألفاظ الكتابية للهمذاني :

حدد الهمذاني هدفه من هذا الكتاب بأنه جمع مادة اللغة ليفيد منها الكتاب ، يقول : " فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناسا من ألفاظ كتاب الرسائل و الدواوين البعيدة من الأشياء و الالتباس، السليمة من التقعير ، المحمولة على الاستعارة و التلويح ، على مذاهب الكتاب و أهل الخطابة دون مذاهب المتشدقين و المتفاحصين ، من المتأدبين و المؤدبين المتكلفين ، البعيدة المرام على قربها من الأفهام ، في كل فن من فنون المخطبات، ملتقطة من كتب الرسائل و أفواه الرجال و مصنفات العلماء . فليست لفظة منها إلا و هي تنوب عن أختها في موضعها من المكاتبة أو تقوم مقامها في المجاورة ، و إما بمشاكلة ، أو بمجانسة ، أو بمجاورة . فإذا عرفها العارف بها و بأمكنتها التي توضع فيها كانت له مادة قوية و عونا و ظهيرا .....

ووزع الهمذاني كتابه هذا على أبواب، عالج في كل منها المرادفات و العبارات المتعلقة بمعنى من المعاني ، كباب " في معنى صلح الشيء " حيث يورد جملة من العبارات المرادفة لعنوان الباب المذكور : " و استقام المائل ، و انشعب الصدع ، و اجبر الوهمي ، و انحسم الداء ، و ارتتق الفتق ، و اعتدل الميل ، و اندمل الكلم " و ك " باب رجوع إلى أهله ، و أعاده الله في نصابه ، و أقره الله في قراره ، ورده إلى معدنه ، و طلعت الشمس من مطلعها ". و هو يورد في البابين المذكورين عبارات مرادفة لبعضها ؛ و قد أورد في أبواب أخرى ألفاظا مرادفة كقوله في " باب في المدح " : "

أطريت الرجل ، و أطرأته ، و مدحته ، و قرظته ، و زكيته في الدين ، و ما زال فلان يذكر محاسن فلان ، و مناقبه ، و فضائله ، و محامده ، و مكارمه ، و مساعته ، و مفاخره ، و مآثره ، و معاليه " .

و قد يورد مفصلا بعض أنواع الكلمات ، كما جاء في " باب أجناس العطش " حيث يفصل مفردات أنواعه و صفاته في الانسان ، و طرائق استعمال كلماته ؛ و كما جاء أيضا في " باب أجناس النوم " ، حيث أورد مفرداته " النوم ، الرقاد ، و السنة ، و الكرى ، و الهجود ، و الهجوع ، و التهويم " ، و أورد الصفات المستعملة " هو نائم ، و هاجد ، و كر و هاجع " ؛ ثم فصل الفرق بين بعض المرادفات . " السبات نوم العليل ، و القائلة نوم الظهيرة " ، و غير ذلك ....و ربما دعم كلامه بشواهد شعرية ، أو بأمثال عربية كما هو الحال ، مثلا ، في " باب المذمة و الاحتقار و إباء الطبع " حيث قال : " هو أذل من النقد ، و أصبر على الهوان من الوتد ، و أذل من نعل " ؛ و قال : " و في الأمثال : لا حر بوادي عوف ، و لا بقيا للحمية بعد الحريم " . و قد يجيء بآيات قرآنية ليدعم كلا ....

واللافت أن هذا الكتاب يختلف عن " فقه اللغة " الذى وضعه الثعالبي قبله في أنه يقتصر على الترادف و الدقة في استعمال الكلام ، و ليس فيه أي شيء من النحو و الصرف و من أبواب البلاغة . لكن المؤلف لم يقسمه تقسيما بحسب مواد الكلام ، و لا بحسب الترتيب

المعجمي ، ما جعل البحث فيه صعبا . و ربما كان مرد هذا أن المؤلف وضعه ليقرأ بكامله فيستفاد من كل ما جاء فيه .

٣-أ- كتاب ليس في كلام العرب لابن خالويه :

يورد ابن خالويه في كتابه هذا ما لم تذكره العرب في كلامها من أبواب لغوية . فالكتاب معجم لغوي موضوع بطريقة طريفة إذ يذكر المؤلف ما لن نقع عليه في اللغة . يقول ، مثلا : " ليس في كلام العرب اسم على مفعول إلا مفردة و هي الكمأة ، و معلوق شجر ، و منخور لغة في المنخر ، و مغثور و مغفور من المغافير صمغ حلو ، و الصعارير الصمغ ، و ربما كانت صعرورة مثل رأس الجمل " . و معظم ما جاء من فصول في هذا الكتاب من هذا النوع . فالمؤلف يحصر كل شاذ و كل نادر مقيس على لغة العرب ، و يورد مجموعة كبيرة من الأبواب ، و ينقل أحاديث في ذلك عن عدد من النحاة ، و أحيانا يروى أن بعضهما كان مثار جدل بين البصريين و الكوفيين ، كقوله : " سيبويه " و أبو زيد يزعمان أنه ليس في كلام العرب اسفعل إلا حرفا واحدا و هو اسطاع يستطيع بمعنى أطاع يطيع ، السين زائدة سماعا عن العرب ، و الكوفيون يقولون إنه ليس في كلام العرب سين تزاد وحدها و إنما هو استطاع ، فاسقطوا التاء ؛ فإذا قيل لهم فلم ضممتم أول المضارع قالوا لما أسقطت التاء أشبهت أفعل يفعل ".

و يشمل الكتاب مسائل في الصرف كثيرة و الطابع الصرفي غالب فيه .

و نجد ابن خالويه يذكر المسألة أحيانا و لا يعلل ، في حين أننا نجده أحيانا يذكر المسألة ثم يورد رأيه فيها ، كما جاء في قوله : " ليس في كلام العرب ما قيل في مذكره إلا بالضم ، نحو العقربان ذكر العقارب ، و الثعلبان ذكر الثعالب ، و الأفعون ذكر الأفاعي إلا في حرف واحد : قالوا الضبعان ذكر الضباع و لم يقل أحد لم ذلك ؛و ذلك أن الضبعان مشبه بالسرحان ، و هو الذئب ، و الذئب أيضا ذكر الضباع ، و يقال لولدها الفرعل ، و صغر تصغيره ، و جمع جمعه ، فقالوا : ضبعين كما قالوا سريحين ، و قالوا ضباعين كما قالوا سراحين ، فلما كانا جميعا ذكرى الضبع وفق بين لفظيهما ".

و اللافت أن أبواب الكتاب تبدأ بالعبارة " ليس في كلام العرب " ، و لهذا السبب حمل الكتاب هذا الاسم . غير أن المؤلف لم يبوب مسائلة تبويبا علميا كأن يستعمل التسلسل الأبجدي ، مثلا ليسهل البحث عن هذه الأبواب .

٣-ب- كتاب معاني الحروف للرماني :

وضع الرماني هذا الكتاب من غير مقدمة فبدأ مباشرة بموضوعه ، و أورد الأحرف التي لها معنى في اللغة العربية ، و لكن يبدو أن أبا على الفارسي كان يبخس الرماني حقه ، فقد قال فيه : " لو كان النحو ما يقوله الرماني لم يكن معنا منه شيء ، و لو كان النحو ما نقوله لم يكن معه منه شيء " .

بدأ الرماني كتابه بالحروف الأحادية (الألف – الباء – التاء – الفاء – الكاف – اللام – الواو) ، ثم بالثنائية (أل –أم –أن–إن–أو–أى–لا–ما–وا–ها–يا–بل–عن–فى–من–قد–كي–لن–لم–لو هل مد) ، ثم بالحروف الثلاثية (منذ – نعم – بلي –ثم –جير –خلا –رب –على – سوف – إن – أن – ليت _ ألا _ إلى –إذا –أيا–هيا) ، ثم الحروف الرباعية (حاشا – حتى – كأن – كلا – لولا – لوما – لعل – إلا – أما – إما _ هلا _ لما _ لكن).

و يلفتنا أن المؤلف يدرج الحروف الأحادية بترتيب أبجدي، في حين أنه لا يدرج الحروف الأخرى كذلك ، و لا يراعي في عرضها أي ترتيب، و هو يعرض شتى استعمالات الحروف ، مراعيا أقوال النحاة حينا ، كقوله في باب الهمزة : " و إذا استعملت في الاستفهام فإنها تأتي على أوجه : منها أن يكون على جهل من المستفهم؛ كقولك : أقام زيد ؟...و منها أن يكون إنكارا : أزيد أمرك بهذا ؟ ...و منها أن يكون توبيخا ...و منها أن يكون تعجبا ...و منها أن يكون تقريرا أو تحقيقا ..." و ربما علة على الأقوال حينا ، و ربما تركها من غير تعليق .

و اللافت أن الرماني غالبا ما يأخذ بأقوال سيبويه، يقول مثلا في حرف السين : " من الحروف العوامل ، لأنها قد صيغت مع ما دخلت عليه حتى صارت كأحد أجزائه، و لولا ذلك لوجب أن تعمل، لأنها مختصة بالفعل، و معناها التنفيس، و ذلك قولك سأخرج و سأذهب ، فهي عدة و تنفيس كما قال سيبويه .

و يأخذ بأقوال الخليل أيضا : " فأما من قرأ (تماما على الذى أحسن) فبعيدة عند النحويين ، و لكن يجوز مثل هذا إذا طال الكلام ، لأن الخليل حكي : ما أنا بالذي قائل لك شيئا " ؛ و يستشهد بغيرهما أيضا ، كقطرب ، و يونس ، و الأخفش ، و المبرد .

و ربما استشهد بالفراء ، كقوله في باب " أل " : " أحدهما أن تكون (أي أل) عوضا من الهمزة ، و ذلك في اسم الله عز وجل ، الأصل فيه : إلاه ، فحذفت الهمزة حذفا على غير قياس ، و عوض منها " أل " هذا أحد قولي سيبويه و الفراء " ، و لكنه اميل ، عموما ، إلى المدرسة البصرية في آرائه ، بل نجده يستشهد بها :" و أنشدوا :

فإن أهلك فذى حنق لظاه يكاد على يلتهب التهابا

و الوجه عند البصريين أن رب ههنا مضمرة ، وهي العاملة لا الفاء ". و ربما استشهد بالكوفيين ، كقوله في باب " إن " : " و الكوفيون يزعمون أن إن بمعنى " ما " و اللام بمعنى إلا (و ذلك في الآية : " إن كل نفس لما عليها حافظ " ، و التقدير عندهم " ما كل نفس إلا عليها حافظ " .

الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني

المؤلف

هو أبو الفتح عثمان بن جني . كان أبوه " جني " روميا من موالي سليمان بن فهد بن أحمد الأزدي ، و من هنا : كان اسمه " أبو الفتح عثمان بن جني الأزدي " ، ولد بالموصل ، و اختلف في تاريخ وفاته، ولكنه توفي على الأرجح في عام ٣٩٢هـ ، كما أشار إلى ذلك ابن النديم و ابن الأنباري .

شيوخه

أخذ ابن جني النحو عن الأخفش، أما أستاذه بحق فهو أبو على الفارسي ؛ إذ صحبه ابن جني أربعين عاما حتى توفي أبو علي ، فخلفه ابن جني في مكانته .

و قد كان ابن جني شابا يدرس العربية في مسجد الموصل عندما التقى بأبي على لأول مرة ، و يقال إن أبا علي وقف يستمع إليه و هو يتحدث في قلب الواو ألفا ، على نحو قام و قال ، فاعترض عليه أبو علي ، إذ وجده مقصرا ، و أرشده إلى الصواب ، و قال له قاصدا أنه قد مارس التدريس قبل أن ينضج : " زببت قبل أن تحصرم " ، ثم قام أبو علي و لم يعرفه ابن جني .

و عندما سأل عنه قيل له : هو أبو علي الفارسي النحوي ، فأخذ في طلبه ، فوجده ينزل إلى السميرية يقصد بغداد ، فنزل معه في الحال ، و لزمه و صاحبه من حينئذ إلى أن مات أبو علي .

و قد روى ابن جني عن الأعراب الفصحاء الثقاة شأن علماء عصره كما روى عن أبي بكر محمد بن الحسن المعروف بابن معتصم . و هو من القراء ، و كان راوية ثعلب، فروى عنه في كتبه أخبار ثعلب و علمه ، كما روى عن المبرد و عن أبي الفرج الأصفهاني.

ثم اجتمع ابن جني بالمتنبي بحلب عند سيف الدولة بن حمدان ، كما اجتمع به في شيران عند عضد الدولة ، فحدث بينهما إجلال و تقدير متبادل كانت نتيجته أن قام ابن جني بأول شرح لديوان المتنبي، و قد تعقب معاصروه شرحه يأخذون عليه فيه بعض أخطائه، و منهم الربعي على بن عيسى . و ابن فورجة ، و الشريف المرتضى و غيرهم . وقد كان ابن جني كثير الثناء على المتنبي ، و لا يقول عنه إلا " شاعرنا " .

وقد كان بن جني من أتباع المذهب البصري ، و لكن خُلق العالم أبى عليه أن يكون متعصبا لهذا المذهب، فكان يأخذ بالرأي الذي يقتنع به، أيا كان مصدر هذا الرأي . فنحن نراه في الخصائص يكثر النقل عن الكسائي و ثعلب، و قد يقف موقفا وسطا بين المذهبين البصري و الكوفي و يأخذ بالمذهب البغدادي.

و كان ابن جني حجة في علم التصريف، و قد مكنه علمه هذا من أن يضع يده عن الأخطاء التي وردت في أمهات المعاجم، و منها كتاب العين للخليل و الجمهرة لابن دريد .فهو يشير إلى ما ورد من أخطاء في كتاب العين ، مبرئا الخليل من أن يكون قد وقع

فيها : " أما كتاب العين ففيه بن الخليط و الخلل و الفساد ما لا يجوز أن يحمل عن أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه ، و لا محالة أن هذا التخطيط لحق هذا الكتاب من قبل غيره. و كذلك يقول في نقده للجمهرة : و أما كتاب الجمهرة ففيه أيضا من اضطراب التصنيف و فساد التصريف ما أعذر واضعه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر ، و لما كتبته واقعت في متونه و حواشيه جميعا من التنبيه على هذه المواضع ما استحييت من كثرته ، ثم إنه طال علي أومأت إلى بعضه و ضربت البتة عن بعضه .

مؤلفاته

أحصى ياقوت في معجمه كتب ابن جني فبلغت تسعة و أربعين كتابا ، و منها سر الصناعة . تفسير ديوان المتنبي الكبير ، تفسير معاني ديوان المتنبي ، اللمع في العربية . كتاب الألفاظ المهموزة ، التهذيب ، التلقين في النحو . ثم الخصائص ، و غير ذلك من الكتب التي تشير إلى طول باعه في علمه .

كتاب الخصائص

كتاب الخصائص كما يتضح من عنوانه يبحث في خصائص اللغة العربية ، و إن اشتمل على مباحث تتصل باللغة بصفة عامة ، مثل البحث في الفرق بين الكلام و القول . و البحث في أصل اللغة : أإلهام هي أم اصطلاح . الخ أما بقية الأبحاث فتختص باللغة العربية : فلسفتها و مشكلاتها .

وقد نص المؤلف على أن الهدف من تأليف كتابه ليس هو البحث في المشكلات اللغوية الجزئية . و لكنه البحث في مشكلاتها الكلية . أي في فلسفتها .

يقول : " إذ ليس غرضنا فيه الرفع و النصب و الجر و الجزم ؛ لأن هذا أمر قد فرغ في أكثر الكتب المصنفة فيه منه ، و إنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني ، و تقرير حال الأوضاع و المبادئ ، و كيف سرت أحكامها في الأحناء و الحواشي " .

و على الرغم من حرص المؤلف على أن ينص على أن الهدف من تأليفه هذا الكتاب ليس هو البحث الجزئي في اللغة ، فإن اللذين ترجموا له ، عرفوا كتابه " الخصائص " بأنه كتاب يبحث في النحو و التصريف . يقول ابن الأنباري : " و أما بو الفتح عثمان بن جني النحوي فإنه كان من حداق أهل الأدب و أعلمهم بعلم النحو و التصريف ؛ صنف في النحو و التصريف كتبا أبدع فيها ، كالخصائص ، و المنصف ، و سر الصناعة ...و لم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف " .

و الواقع أن ابن جني ، عندما يبحث في مشكلة صرفية أو مشكلة نحوية ، لا يبحث فيها في حد ذاتها ، و لكنه يتخذها منطلقا . أو لنقل وسيلة ، للوصول إلى مشكلة لغوية أكبر، و مثال ذلك بحثه في الفرق بين الكلام و القول .

و لنقدم أمام القول على فرق بينهما، طرفا من ذكر أحوال تصاريفهما و اشتقاقهما مع تقلب حروفهما، فإن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق و يعلوه إلى ما فوقه، و ستراه فتجده طريقا غريبا ، و مسلكا من هذه اللغة الشريفة عجيبا .

و هنا نراه يشير إلى أن الموضوع لا يقف عند حد التصريف و الاشتقاق ، و لكنه يتجاوزه إلى ما هو أبعد من ذلك ، و هو الفرق بين ما ينطق به اللسان أحيانا فيسمى قولا ، و ما ينطق به أحيانا أخرى أو يكتبه القلم فيسمى كلاما .

وهنا يبدأ بتصريف مادة " قول " وذكر تقليباتها ، فيجد هذه التقليبات تنحصر في : قلو . قل . ولق . و عندئذ يأخذ في شرح هذه الألفاظ مستعينا بالتراث الأدبي العربي .فالأصل الأول قول و هو القول ؛ و قد سمى بذلك لأن " الفم و اللسان يخفان له . و يقلقان و يمذلان به " . و الأصل الثاني " قلو " ، و منه القلو ، و هو حمار الوحشي ، و قد سمى بذلك لخفته و إسراعه . و الثالث " وقل " ، و منه الوقل للوعل ، وذلك لحركته . و الرابع " ولق " بمعنى أسرع . و الخامس " لوق " و قد جاء في الحديث الشريف : " لا آكل من الطعام إلا ما لوق لي " ، أي ما خدم و أعملت اليد في تحريكه ...و السادس " لقو " و منه اللقوة للعقاب ، و قد قيل لها ذلك لخفتها و سرعة طيرانها . و منه اللقوة ، و هي الناقة السريعة اللقاح .

فهذه الألفاظ جميعها يجمع بينها معنى " الخفوف و الحركة " .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تصريف كلمة " كلم " و تحديد تقليباتها ، و هي كلم ، و كمل ، و لكم ، و مكل ، و ملك ، و قد أهمل لمك لأنها لم تأت في ثبت "، و عندما حاول أن يستخلص المعنى المشترك بين هذه التقليبات وجده الشدة و الصلابة ؛ فالجرح هو الكلم ، الشدة التي فيه ، و الكلام ما غلظ من الأرض ، و كمل الشيء أي تم فأصبح أقوى و أشد،

و مكل : منه بئر مكول أي نضب ماؤها و اشتد جانبها ، و ملك : منه ملكت العجين، أي عجنته حتى اشتد و قوي ، و منه الملك الذي يعطي صاحبه القوة و الغلبة .

و يخلص ابن جني من هذا التحليل إلى أن الكلام هو اللفظ المستقل بنفسه ، المفيد لمعناه "وهو الذي يسميه النحويون الجمل "، أما القول " فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان ، تاما كان أو ناقصا "، و لهذا فإن القرآن الكريم يقال عنه كلام الله و ليس قول الله.

و يظل ابن جني يعالج هذا الموضوع من كافة زواياه ، مثيرا بذلك مشكلات لغوية ما تزال تعالج حتى اليوم في الأبحاث اللغوية الحديثة .

(ج) : و لم تكن عقلية ابن جني عقلية حافظة ناقلة و حسب ، بل كانت عقلية علمية جدلية لا تسلم بالأمر إلا بعد اقتناع و إن صدر عن كبار العلماء .

فقد سلم مع بعض علماء عصره بادئ الأمر بأن اللغة إلهام و توقيف ، و لكن هذا التسليم كان ظاهريا ؛إذ ظل الموضوع يلح عليه ليجيل الفكر فيه مرة أخرى . و هو في ذلك يقول : " و اعلم فيما بعد ، أنني على تقادم الوقت . دائم التنقير و البحث عن هذا الموضع ، فأجد الدواعي و الخوالج قوية التجاذب لي ؛ مختلفة جهات التغول على فكري " و هنالك صرح برأيه في أن اللغة لا يمكن أن تكون وضعية ؛ لأن " المواضعة لابد معها من إيماء و إشارة بالجارحة نحو المومأ إليه، و المشار نحوه ، و القديم سبحانه لا جارحة له فيصح الإيماء و الإشارة بمها منه ".

و هو رأي نحس فيه بأثر المعتزلة في فكره .

إن عالم اللغة ينبغي ، من وجهة نظر ابن جني ، أن يناقش المشكلات اللغوية الجوهرية حتى يصل بها إلى حد الوضوح و الإقناع ، لأن هذا أساس كل مبحث أدبي و فلسفي، و لهذا صرح بأن العلل اللغوية أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل المتفقهين : " ألا ترى إلى قوة تنازع أهل الشريعة فيها ، و كثرة الخلاف في مباديها ، و لا تقطع فيها بيقين ، و لا من الواضح لها ، ولا كيف وجه الحكمة في كثير مما أريناه آنفا من حالها " . أما عالم اللغة ، فيجب عليه " أن ينعم الفكر فيها .و يكاس في الإجابة عنها ."

قيمة الكتاب:

إن كتاب الخصائص لابن جني يحظى بقيمة عالية ومميزة في كتب الأدب وفقه اللغة، وذلك لأمور عدة موجودة فيه سواء كانت في منهجه أم في موضوعاته المطروحة، من أبرزها:

١- التأسيس لمفهومات حديثة: إنّ الحديث عن علم الأصوات والدلالات وتغير معاني المفردات وفق السياق الذي تكون فيه كله من المفاهيم المنتشرة في الاتجاهات النقدية الحديثة، وبالعودة إلى كتاب الخصائص يتبين أنها كلها ذُكرت في صفحات الكتاب ولكن بتعابير أخرى، وتحت عناوين مختلفة.

٢- الاهتمام بالدلالة: من المعروف ما وصل إليه علم الدلالة من نضج في العصر الحالي، ولكن هذا العلم له جذوره في كتب الماضي، ومنها كتاب الخصائص الذي اهتم بالدلالة الصرفية والنحوية والصوتية للكلمة وللحرف.

٣- الأصالة والابتكار: يجمع كتاب الخصائص بين دفتيه أصالة العلوم القديمة والمعارف التي جمعها القدماء، والابتكار والتجديد المتوافق مع مفاهيم فقه اللغة والدراسات اللسانية المعاصرة، وهذا يجعله مرجعًا مهمًا وضروريًا لكل مهتم باللغة ودراستها.

٤- التجدد المستمر: إنّ أبرز ما يميز كتاب الخصائص ويعطيه هذه المكانة في كتب اللغة أنه كلما قُرئ شعر القارئ بالجديد فيه، فلا يشعر بالملل أو التكرار، إنما يكتشف أسرار جديدة وعوالم مميزة للغة كأنها نبع لا ينضب.

٥- الشمولية والموسوعية: فقد ذكر ابن جني في مقدمة كتابه الخصائص أن هذا الكتاب يجمع كل وجوه العلم، ويشمل كل الأدلة ولم يسبق أن صُنف مثل هذا الكتاب، ويذكر أنه المرجع الصحيح لكل ما يخص اللغة، وأنّ كل من سبقوه في تأليف ما له علاقة بأصول اللغة لم يكن تأليفهم شاملًا، وهذا يرفع من قيمة الكتاب وأهميته.

٦- تسليط الضوء على المعنى: لقد اهتم ابن جني كل الاهتمام بالمعنى، وجعله هو سيد الموقف، وجعل الألفاظ في خدمة المعنى، وتناسبُها هو الذي يساعد في تأدية المعنى، وبيّن أن استقامة المعنى هي التي تتحكم بالنحو والإعراب واللفظ المنطوق، وهذا ما لم يأتِ به أحد قبله.

٧- وضوح المعلومة: لقد كان ابن جني في كل شروحه والمعلومات التي قدمها في كتاب الخصائص يهدف إلى إيضاح الغامض، وإزالة اللبس عن كل ما له علاقة

بدلالة سياق الحال، وربط الكلام بظروفه وملابساته، ودلالة الحركات الإعرابية، وكل ما له علاقة بالمستوى التركيبي النحوي للغة.

فكتاب " الخصائص " يقف – بموضوعاته اللغوية العميقة ، و أسلوبه المنطقي في الجدل ، و ثقة صاحبه في الرواية و الحفظ ، شامخا بين كتب اللغة العربية . بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إنه يضارع ما يظهر اليوم في الغرب من أبحاث لغوية جادة و عميقة، و لن نتبين هذا إلا إذا عكفنا على دراسة موضوعاته دراسة متأنية ، ووضعناها جنبا إلى جنب مع نظائرها من الأبحاث الحديثة التي يدعي أصحابها أنها جديدة كل الجدة .

ما يؤخذ عليه:

إنّ ما ذُكر عن كتاب الخصائص من مآخذ يكاد لا يُعثر عليه لقلته، ومما ذُكر عنه[١٧]:

- استعمال "قد": ذُكر في كتاب الخصائص عبارة "القول قد لا يتم معناه إلا بغيره" وقد وضح السامرائي أنّ لفظة "قد" ورد عنها في المعاجم أنها لا تُستعمل إلا مع الفعل المثبت المتصرف المجرد من أي حرف نصب أو جزم ، وفي العبارة السابقة استُعملت قد مع فعل منفيّ.
- استعمال "كافة" معرّفة: مما ذكره فاضل السامرائي أيضاً عن كتاب الخصائص أن ابن جني قد استعمل لفظة "كافة" معرّفة بـــ "ال" التعريف في كثير من المواضع،

[١٧] ينظر: ابن جني النحوي، فاضل صالح السامرائي، دار النذير للطباعة والنشر، ١٣٨٩هـــ/١٩٧٠م، صـــ٧٢:٧٧.

وهذه اللفظة في اللغة العربية -كما وضحت المعاجم- لا ترد معرفة، وذلك غير جائز لأنه أسلوب عربي غير سائغ.

- تعدية الفعل ترى: ذكر السامرائي بعض العبارات في كتاب الخصائص التي استعمل فيها ابن جني الفعل رأي الدال على الرؤية القلبية والذي يتعدى إلى مفعولين وقد عدّاه ابن جني بحرف الجر إلى، مثل: وقد ترى إلى توافي هذه الأشياء.
- استخدام "آنفًا" مع المضارع: ورد في الخصائص استخدام "آنفًا" مع فعل مضارع قبلها مثل "تذكره آنفًا" وقد وضّح السامرائي أن آنفًا تدل على الزمن السابق، ولذلك ينبغي أن تُستعمل مع الفعل الماضي، فيُقال: ذكرناه آنفًا.
- استخدام أجاب على: عرض السامرائي مجموعة من المواضع التي استعمل فيها ابن جني الفعل أجاب متعديًا بحرف الجر على، والصواب هو أن يكون الفعل أجاب متعديًا بحرف الجر عن، فيُقال: أجاب عن سؤالي.

نموذج من كتاب الخصائص :

الإبانة عن المعاني بالألفاظ ؛ ألا ترى أنك إذا سمعت (أكرم سعيد أباه) ، (و شكر سعيدا أبوه) علمت برفع أحدهما و نصب الآخر الفاعل من المفعول ، و لو كان الكلام شرحا واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه .

فإن قلت : فقد تقول ضرب يحيى بشرى ، فلا تجد هناك إعرابا فاصلا ، و كذلك نحوه ، قيل : اذا اتفق ما هذه سبيله ، مما يخفي في اللفظ حاله ، ألزم الكلام من تقديم الفاعل ،و تأخير المفعول . ما يقوم مقام بيان الإعراب . فإن كانت هناك دلالة أخرى من قبل المعنى وقع التصرف فيه بالتقديم و التأخير ؛ نحو أكل يحيي كمثرى : لك أن تقدم و أن تؤخر كيف شئت ؛ و كذلك ضربت هذا هذه ، و كلم هذه هذا ؛ و كذلك إن وضح الغرض بالتثنية أو الجمع جاز لك التصرف ؛ نحو قولك أكرم اليحييان البشريين ، و ضرب البشريين اليحيون ؛ و كذلك لو أومأت إلى رجل و فرس ، فقلت : كلم هذا هذا فلم يجبه لخغلت الفاعل و المفعول أيهما شئت ؛ لأن في الحال بيانا لما تعني ، و كذلك قولك ولدت هذه ، من حيث كانت حال الأم من البنت معروفة ، غير مذكورة ، و كذلك إن ألحقت الكلام ضربا من الإتباع جاز لك التصرف لما تعقب من البيان ؛ نحو ضرب يحيي نفسه بشري ، أو كلم بشري العاقل معلي ، أو كلم هذا وزيدا يحيي ، و من أجاز قام وزيد عمرو لم يجز ذلك في نحو " كلم هذا وزيد يحيي " و هو يريد كلم هذا يحيي وزيد ، كما يجيز " ضرب زيدا و عمرو جعفر " .

فهذا طرف من القول أدى إليه ذكر الإعراب .

و أما لفظه فإنه مصدر أعربت عن الشيء اذا أوضحت عنه ؛ وفلان معرب عما في نفسه أي مبين له ، و موضح عنه ، و منه عربت الفرس تعريبا إذا بزغته ، وذلك أن تنسف أسفل حافره ، و معناه أنه قد بان بذلك ما كان خفيا من أمره لظهوره إلى مرآة العين ، بعد ما كان مستورا .

الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرِّد

الكامل في اللغة والأدب

لأبي العباس المبرد

المؤلف:

أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، وشهرته المبرّد ، ولد المبرد في البصرة عام ٢١٠هـ، وتوفي عام ٢٨٥هـ.

شيوخه:

درس المبرد على يد جلة من علماء عصره، قرأ كتاب سيبويه في النحو على الجرمي، وأبي عمر صالح بن إسحاق، وختمه على المازني.

وتلقى العلم على أبي حاتم السجستاني، وعمارة بن عقيل وغيرهم.

آثاره:

خلف المبرد ثروة مهمة من المؤلفات، منها: الكامل، والمذكر والمؤنث، والمقتضب، والتعازي والمراثي، وشرح لامية العرب، وإعراب القرآن، وطبقات النحاة البصريين، ونسب عدنان وقحطان، وغير ذلك.

وصف كتاب الكامل:

يعد هذا الكتاب من أبرز الكتب الموسوعية التي أُلفت في طليعة القرن الثالث الهجري، وهو كتاب في اللغة والأدب والنحو والتصريف، حتى التأريخ للتيارات الفكرية.

منهج المبرد في الكتاب:

قام كتاب المبرد على الجمع ثم التفسير والشرح، فهو يقول: "هذا الكتاب ألفناه يجمع ضروبا من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة، والنية أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا وافيا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيا".

وهذا الكتاب في الحقيقة يشبه كثيرا كتاب البيان والتبيين للجاحظ، خاصة في إيراد المنظوم والمنثور، ولكن يتميز عنه في تركيزه على الجانب النحوي، فمثلما استغل الجاحظ نصوصه للبيان والتبيين، كذلك فعل المبرد، ولكن لتعضيد قاعدة نحوية، أو مسألة صرفية؛ ولهذا يغلب الجفاء والجفاف على الكامل، في حين تسري روح المرح والدعابة في البيان والتبيين، وإن كان الأديبان يشتركان في سمة الاستطراد، فهما يختلفان في نوع ثقافتهما؛ فقد كان الجاحظ ملما بثقافة عصره على تنوعها، بينما كانت ثقافة المبرد عربية خالصة ، لم تشبها شائبة من الثقافات الدخيلة.

تفصيل منهجه:

لابد من الإشارة إلى بعض التفاصيل في منهجه، فهو يأتي بالنص كأن يكون حديثا – كما فعل في أول الكتاب– ثم يأخذ في شرحه لغويا ونحويا مستشهدا في ذلك بروائع من الشعر والنثر، فإذا فرغ من ذلك قدم نصا آخر، كأن يكون خطبة أو رسالة مشهورة، وبهذا يمكننا أن نلخص محتوى الكتاب فيما يلي:

١– مختارات من الشعر والنثر والأمثال والحكم.

٢– إيضاحات لغوية.

٣– شروح نحوية.

٤– لمحات نقدية.

فبالنسبة إلى اللمحات النقدية فنجده قد تطرق إلى بعض القضايا النقدية التي شغلت النقاد آنذاك، مثل : قضية اللفظ والمعنى، وقضية الجديد والقديم، وأخيرا السرقات الشعرية، ولا ننسى بعد هذا أن الكتاب يحتوي على قدر كبير من أدب الخوارج، حتى وصل الأمر ببعض العلماء إلى اتهامه بتبني الفكر الخارجي، كما فعل ذلك ابن أب الحديد شارح نهج البلاغة، وإن كان هذا معروفا بتشيعه، ولكن المنصف يستقر على أن المبرد لم يكن ذا

هوى خارجي ، ولكن التعاطف البادي إنما كان مع فن هؤلاء ، ومع استبسالهم في الدفاع عن أفكارهم.

ما يؤخذ عليه

ومما يؤخذ على المبرد أنه كثيرا ما يروي أخباره دون أسانيد، وكذلك نجد عيب الاستطراد إلا أن هذه السمة لم تقتصر على المبرد وحده بل مست جلّ علماء تلك الفترة .

كما كان حظ النقد من الكتاب محدودا، فهو يروي الشعر، ويفسر لغوياته، ويعرب كلماته، ويحلل جملة، ولكن لا يتعرض لمناحي الجمال فيه.

دور الأخفش الصغير راوية الكتاب:

كان للأخفش الصغير راوية الكتاب دور واضح داخل الكتاب، فهو يمد عقله داخل الكتاب، فيشرح من الكلمات اللغوية ما يراه صعبا ولم يفسره المؤلف، أو يعرف بمن يراه نادرا وغريبا من الأعلام، أو يصحح له روايته، أو يزيد عليها، وينسب الصحيح إلى نفسه.

نموذج من الكتاب

قال أبو العباس: ذكر أهل العلم من الصفرية أن الخوارج لما عزموا على البيعة لعبيد الله بن وهب الراسبي من الأزد تكّره ذلك فأبوا من سواه ولم يريدوا غيره، فلما رأى ذلك منهم قال: يا قوم استبيتوا الرأي، أي دعوه يغب، وكان يقول: نعوذ بالله من الرأي

الدبري، قوله استبيتوا الرأي بقوله: دعوا رأيكم تأتي عليه ليلة ثم تعقبوه، يقول: بيّت فلان كذا وكذا إذ فعله ليلا، وفي القرآن (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) أي أرادوا ذلك ليلا بينهم .

والرأي الدبري الذي يعرض بعد وقوع الشيء، قال جرير :

ولا يعرفون الشعر حتى يصيبهم ولا يعرفون الأمر إلا تدبرا

لـــــو:

فلو أصلها في الكلام أن تدل على وقوع الشيء لوقوع غيره، تقول:

لو جئتني لأعطيتك، ولو كان زيد هناك لضربته، ثم تتسع فتصير في معنى (إن) الواقعة للجزاء، تقول: أنت لا تكرمني ولو أكرمتك، تريد وإن أكرمتك، قال الله عز وجل" فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به" فإن تأويله عند أهل اللغة لا يقبل به أن يتبرأ وهو مقيم على الكفر، ولا يقبل إن افتدى به، (فلو) في معنى (إن)، وإنما منع (لو) أن تكون من حروف المجازاة، فتجزم كما تجزم إن أن حروف المجازاة إنما تقع لما لم يقع ، ويصير الماضي معها في معنى المستقبل، تقول: إن جئتني أعطيتك، وإن قعدت عني زرتك، فهذا لم يقع وإن كان لفظه لفظ الماضي لما أحدثته فيه (إن)، وكذا (متى أتيتني أتيتك)، و(لو) تقع في معنى الماضي، تقول: لو جئتني أمس لصادفتني، ولو ركبت

إليَّ أمس لألفيتني؛ لذلك خرجت من حروف الجزاء، فإذا أدخلت عليها (لا) صار معناها أن الفعل يمتنع لوجود غيره، فهذا خلاف ذلك المعنى، ولا تقع إلا على الأسماء.

إصلاح المنطق لابن السكّيت

إصلاح المنطق

لابن السكّيت

المؤلف:

هو أبو يوسف يعقوب بن السكيت، و السكّيت لقب أبيه، لأنه فيما يقال كان كثير السكوت، و قال ياقوت : " كان أبوه من أصحاب الكسائي ، عالما بالعربية و اللغة و الشعر ، وكان يعقوب يؤدب الصبيان مع أبيه في درب القنطرة بمدينة السلام ، حتى احتاج إلى الكسب ، فأقبل على تعلم النحو من البصريين و الكوفيين ؛ فأخذ عن أبي عمرو الشيباني و القراء و ابن الأعرابي و الأثرم ، وروى عن الأصمعي و أبي عبيدة ، و أخذ عنه أبو سعيد السكري ، و أبو عكرمة الضبي ، و محمد بن الفرج المقرىء ، و محمد بن عجلان الأخباري، و ميمون بن الكاتب ، و غيرهم . وكان عالما بالقرآن و نحو الكوفيين، و من أعلم الناس باللغة و الشعر ، راوية ثقة . و لم يكن بعد ابن الأعرابي مثله " .

(أ) مولده:

لم يعرف تاريخ مولده على وجه التحديد ، و لكن روى أنه حين توفى كان قد بلغ الثامنة و الخمسين، فإذا كان قد توفى في عام ٢٤٤هـ ، و هو التاريخ الذى يذكره كثير ممن ترجموا له، فإنه ولد سنة ١٨٦ هـ .

و قد روى ابن الأنباري رواية وفاته فقال إنه توفى في خلافة المتوكل، و كان المتوكل " قد أمره بشتم رجل من قريش فلم يفعل، و أمر القرشي أن ينال منه فنال منه و أجابه يعقوب . فلما أن أجابه قال له المتوكل : أمرتك أن تفعل فلم تفعل . فلما شتمك فعلت ، وأمر بضربه ، فحمل من عنده صريعا مقتولا، ووجه المتوكل من الغد إلى بني يعقوب عشرة آلاف درهم ديته " .

وروى عن أبي عمرو الشيباني أنه قال: " و انتهى علم الكوفيين إلى أبي يعقوب بن إسحق السكيت و أبي العباس أحمد بن ثعلب ، و كانا ثقتين أمينين . و يعقوب أسن و أقدم، و أحسن الرجلين تأليفا ، و ثعلب أعلمهما بالنحو . "

(أ)-٢: مؤلفاته:

قد ذكر ابن النديم في ترجمته لابن السكيت الكتب التي ألفها هذا العالم اللغوي، و هى كثيرة، أما ما نشر منها فهو : كتاب الأضداد (و قد نشر ضمن مجموعة كتب الأضداد للأصمعي و السجستاني و الصغاني) ، و كتاب القلب و الإبدال ، و كتاب الألفاظ ، ثم كتاب إصلاح المنطق .

(ب) منهجه في الكتاب:

لم يتقدم ابن السكيت بمقدمة في مطلع كتابه تشرح منهجه وهدفه من وراء تأليف هذا الكتاب، على أننا إذا نظرنا إلى الكتاب في ضوء حركة جمع اللغة من مصادرها الأصلية

و العكوف على دراستها أدركنا أن كتاب ابن السكيت كان ثمرة من ثمار هذا النشاط في الجمع و التأليف ؛ هذا النشاط الذي كان العلماء يسعون من ورائه إلى المحافظة على اللغة العربية سليمة حتى لا يعتريها تحريف في الشكل أو المعنى .

(ج) تقسيمات الكتاب:

تتنوع المادة في الكتاب بين ما يتصل بالألفاظ الفصيحة، و ما يتصل بالألفاظ التي حورتها العامة ، أو ما يسمى بلحن العامة ، أما الكتاب نفسه فينقسم إلى قسمين غير متميزين في موضوعاتهما الأساسية ، ذلك أن كلا القسمين يحتوي على قدر من الألفاظ الفصيحة و قدر من تلك التى تطرأ عليها اللحن ، و لهذا فليس هناك مبرر منهجي لتقسيم الكتاب إلى قسمين ، و كان أولى بمؤلفه أن يجعله قسما واحدا ، بخاصة أن حجمه ليس بالكبير .

و ينقسم كل قسم من قسمى الكتاب إلى أبواب تختلف بين الطول و القصر ، و يبلغ عدد الأبواب فى مجموعها مائة باب ونيفا، و قد يضع المؤلف للباب عنوانا يتحدد بالصيغة الصرفية التى يبحثها فيه ، مثل باب " فعل و فعل باختلاف المعنى "، و باب " فعل و فعل " باتفاق المعنى، و قد يتحدد عنوان الباب وفقا للموضوع ، فيذكر " باب النوادر " أو " باب ما يتكلم فيه بالجحد " أو " باب الاسمين يغلب أحدهما على صاحبه لشهرته أو لخفته من الناس " .

أما الأبواب تبحث في لحن العوام فيبلغ عددها عشرة أبواب ، و هى :

١-" ما هو مكسور الأول مما فتحته العامة أو ضمته ".

٢-" ما جاء على فعلت بالفتح مما تكسره من تحريف في الضبط .

٣-" باب يتكلم فيه بفعلت مما يغلط العامة فيه فيتكلمون بأفعلت".

٤-" ما يتكلم فيه بأفعلت مما يتكلم فيه العامة بفعلت "

٥-" ما يهمز مما تركت العامة همزه".

٦-" ما يتكلم فيه بالصاد مما يتكلم به العامة بالسين ".

٧-" ما يتكلم فيه بالسين فيتكلم فيه العامة بالصاد "

٨-" ما يغلط فيه يتكلم فيه بالياء و إنما هو بالواو ".

و هذه الأبواب تكشف عما اعترى بعض ألفاظ الفصحى من تغيير في الحروف في لغة العامة .

ثم هناك بابان تحت عنوان " فيما تضعه العامة في غير موضعه " ، و هما .

يكشفنا عما اعترى الألفاظ الفصيحة من تغيير في المعنى في استعمال العامة .

و يبدأ المؤلف كل باب مباشرة بذكر الألفاظ التي ترد على الوزن الذي يبحث فيه . ثم يذكر معناها ، مستشهدا بآيات من القرآن و بالحديث و الشعر . و هو قد يفسح لنفسه المجال فيكثر من الاستطراد . و قد يوجز بحيث لا يذكر سوى اللفظ و معناه . يقول . على سبيل المثال : " يقال : ما عسيست أن أصنع . قال الله جل ذكره : (فهل عسيتم إن توليتم) .

و لا ينطق منها باستقبال، و يقال : دمعت عينه، و يقال : رعفت أرعف ، و الضم لغة . و قد عطشت أعطش ، و قد سعلت بالفتح لا غير .... و قد كفلت به أكفل كفالة ، و قبلت به في معنى واحد ...."

أما الأبواب التى يتحدث فيها عن لحن العامة فكثيرا ما يخلطها بالحديث عن الألفاظ الفصيحة التى ربما لم تستعملها العامة فهو يتحدث على سبيل المثال في باب ما يهمز و تركت العامة همزه ، عن الكلمات الشائعة عند العامة في هذا المجال ، مثل كلمة فاس . وراس ، و كاس ، و طاطيت بدلا من طأطأت ، و أبطيت بدلا من أبطأت . ثم يقول : " هذا كمء ، وهذان كآن ، و هؤلاء اكؤ ثلاثة .فإذا كثرت فهى الكمأة ، و قد أكمأت الأرض إذا كثرت كمأتها ، و يقال خرج المتكمئون ، للذين يجتنبون الكمأة " .

و لكنه لا يذكر إثر ذلك فيما تغيرت الكلمة عند استعمال العامة لها ، أو أنها استعملت لديهم على ما هي عليه ، كما هو الشأن في هذه الكلمة الأخيرة و مشتقاتها.

(د) المآخذ والانتقادات:

يؤخذ على الكتاب أن صاحبه لا يهتم بترتيب مواده في الأبواب ترتيبا أبجديا، و من ثم يصعب الكشف فيه عن الكلمة المطلوبة، و لكننا إذا عرفنا أن الكتب التي ألفت في اللغة العربية بصفة عامة قبل ابن السكيت كانت لا تتحرى التبويب أو الترتيب الأبجدي ، أدركنا أن ابن السكيت قد خطا خطوة في سبيل تنظيم المادة عندما صنفها على الأقل في أبواب، أما الترتيب الأبجدي في داخل الأبواب فلم يتحقق إلا على أيدي من جاءوا بعده .

و على كل فإن كتاب " إصلاح المنطق " يعد من أوائل الكتب التي ألفت في لحن العامة . و قد نوه الدكتور حسين نصار بأهمية هذه الكتب بقوله :

"و جملة القول في لحن العامة و الخاصة ... أن أهميتها تقوم على تصويرها الشعب العربي و حياته في جميع الأقاليم تصويرا دقيقا محكما لا تعطيناه معاجم اللغة الفصيحة ؛ فقد كانت هذه المعاجم يعتمد المتأخر منها على المتقدم ، و يحاول أن يفسر اللفظ بالمعاني التي كان يستعمله فيها الجاهليون و الإسلاميون الأول وحدهم ، بينما عنيت هذه الرسائل باللغات الحية في الأقاليم و دلالاتها فكانت أصدق تصويرا ."

و قد اعتمد على كتاب " إصلاح المنطق " ، فيما بعد كثير من مؤلفي المعاجم ، و منهم القالي في معجم " البارع " . و الأزهري في تهذيبه ، و ابن فارس في المقاييس ، و ذلك

لما احتوى عليه هذا الكتاب من ثروة لغوية عزيرة ، و لاستيفائه مشتقات الألفاظ و تصاريفها .

و قد روى ابن فارس كتاب " إصلاح المنطق " عن أبيه فارس بن زكريا . وقد نص على ذلك في مقدمة معجمه " المقاييس " فقال : " و منها (أى من الكتب الجليلة في اللغة) كتاب المنطق ، و أخبرني به فارس بن زكريا عن أبي نصر ابن أخت الليث بن إدريس عن الليث عن ابن السكيت.

الكـــــتـــاب لسيبويه

الكتاب

لسيبويه

المؤلف:

أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه(١٤٨هـ/١٨٠هـ) أخذ النحو عن الخليل والأخفش الأكبر، نشأ في البصرة، وذاع اسم كتابه (الكتاب) تنويها بشهرته.

مولده

لا سبيل إلى تحديد سنة ميلاده، فقد أغفلها المؤرخون جميعا، ولا محيص لنا من الفرض والتخمين للوصول إلى معرفة تلك السنة على وجه التقريب؛ ذلك أن التاريخ يذكر من أساتذة سيبويه عيسى بن عمر الثقفي الذي يكاد المؤرخون يجمعون على أنه تُوفي سنة تسع وأربعين ومائة، ويقول ياقوت في كتابه «معجم الأدباء»: «وما يكون قد أخذ عنه إلا وهو يَعقل، ولا يعقل حتى يكون بالغا، فإذا حسبنا لبلوغ سيبويه سن الرشد أربعة عشر عاما، كان لنا أن نضع ميلاد سيبويه في العام الخامس والثلاثين بعد المائة، ويكون عيسى بن عمر من أوائل الأساتذة الذين أخذ عنهم سيبويه».

ويجهل التاريخ مكان مولد، إلا أن هناك بعض المؤرخين يروي أنه ولد بالبيضاء ، التي يصفها ياقوت في (معجم البلدان) بأنّها مدينة مشهورة بفارس، وأنّها أكبر مدينة في كورة إصطخر، وأنها سميت بالبيضاء؛ لأنها قلعة تَبين من بُعد، ويُرى بياضُها.

ويروي كثير من المؤرّخين أن سيبويه لم يطلب النحو أوّل ما طلب، بل كان يطلب الفقه والآثار ، أي الحديث وتاريخ الغزوات، قال نصر بن علي: كان سيبويه يستملي على حمَّاد بن سلمة، فقال حمّاد يوما : قال صلى الله عليه وسلم: «ليس أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه، ليس أبا الدرداء" فقال سيبويه:"ليس أبو الدرداء" فقال له حمّاد: "لحَنت، ليس أبا الدرداء"، فقال سيبويه:"لاجرمَ، لأطلبن علما لا تلحنني فيه أبدا" وطلب النحو ولزم الخليل[١٨].

ولم يكتفِ سيبويه بالنحو والفقه والآثار بل ضرب في كل علم من علوم عصره بسهم، قال ابن عائشة:" «كنّا نجلس مع سيبويه النّحوي في المسجد، وكان شاباً نظيفًا جميلا، قد تَعلّق من كل علم بسبب، وضرب في كل أدب بسهم، مع حداثة سنِّه وبراعته في النَّحو، فبينا نحن ذات يوم إذ هبّت ريح فأطارت الورق، فقال لبعض أهل الحلقة: انظر أي ريح هي ؟ وكان علة منارة المسجد تمثال فرس، فنظر ثم عاد، فقال: «ما ثبتت على حال»

---

[١٨] ــ ينظر: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ، لبنان، صـ٥٤٨.

فقال سيبويه: «العرب تقول في مثل هذا: قد تَذاءَبت الريح، وتذاءبت أي فعلت فعل الذئاب؛ وذلك أنه يجيء من ها هنا وها هنا، ليخيل، فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب"[١٩].

متى ألَّف سيبويه كتابه؟

تاريخ تأليف هذا الكتاب مجهول كلَّ الجهل، ولم تذكر كلُّ كتب التاريخ أن الكتاب ظهر في حياة مؤلِّفه، فالسيرافي والمؤرخون من بعده قد ذكروا أن الكتاب لم يَظهر في حياة سيبويه، ولكنه ظَهَر بعد وفاته، والذي نقله عنه ورواه للجمهور تلميذه الأخفش، قال السيرافي: والطريقة إلى كتاب سيبويه، الأخفشُ؛ وذلك أن كتاب سيبويه لا نعلم أحداً قرأه على سيبويه، ولا قرأه عليه سيبويه، ولكنه لمَّا مات سيبويه قُرئ الكتابُ على أبي الحسن الأخفش، وكان ممَّن قرأه عليه أبو عمرو الجرمي، وأبو عثمان المازني. وقال ياقوت في معجمه: وكان الأخفش يستحسن كتاب سيبويه كلَّ الاستحسان، فتوهَّم الجرمي والمازني أن الأخفش قد همَّ أن يدَّعِيَ الكتاب لنفسه، فتشاورا في منع الأخفش من ادِّعائه، فقالا: نقرؤه عليه، فإذا قرأناه عليه أظهرناه، وأشعنا أنه لسيبويه، فلا يُمكنه أن يدَّعيه. فأرغبا الأخفش وبذلا له شيئًا من المال على أن يَقرآه عليه، فأجاب، وشرعا في القراءة، وأخذا الكتاب عنه، وأظهراه للناس.

---

[١٩] تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج١٢،١٩٢.

وصف الكتاب:

كتاب كبير يقع على سبعمائة وعشرين فصلا، مقسوم إلى قسمين، يختلط فيهما النحو بالصرف، وفيه من الأمثلة الشعرية والآيات القرآنية الشيء الكثير، طُبع مراراً في الشرق والغرب.

منهج الكتاب:

لكتاب سيبويه وحدةٌ وغرض معين؛ لأن موضوعه جمع القواعد النحوية والصرفية، وهنا يَحسُن أن نشير إلى أن كتاب سيبويه لا يقتصر على ذكر قواعد النحو فحسب، بل شمل قواعد الصرف أيضاً، ففيه أبواب لأوزان الكلمة وأنواع الاشتقاق المختلفة، والتثنية، والجمع، والإعلال، والإبدال، والتصغير، والنسب، وغير ذلك من أبواب التصريف.

والكتاب مقسَّم إلى أبواب، كل باب يعالج ناحية من نواحي القواعد، وليس في الكتاب مقدمةٌ ، بل أوَّلُه في صميم الموضوع؛ إذ يتحدث عن أقسام الكلمة، فيقول: «هذا باب علم ما الكلم من العربية». والكتاب جزءان: يحتوي الجزء الأول منهما على الكلم وأقسامه، والفاعل، والمفعول، وما يعمل عمل الفعل، وإعمال المصدر، واسم الفاعل، والصفة المُشبَّهة، والحال، والظرف، والجر، والتوابع، والمعرفة والنكرة، والمبتدأ والخبر، والأسماء التي بمنزلة الفعل، والأحرف المشبهة به، والنداء، والترخيم، والنفي بلا، والاستثناء، وباب لكل من أحرف الجر. وفي الجزء الثاني ما ينصرف وما لا ينصرف،

والنسب، والتصغير، والمقصور والممدود، والجمع، والوقف، والإعلال، والإبدال، ووزن الكلمات، ولكن ترتيب الكتاب يُخالف النهج الذي نتبعه ويتبعه المؤلفون المتأخِّرون فيما يأتي:

أولًا: ترتيب أبواب الكتاب يخالف ما عهدناه من الترتيب فيما نتداوله من الكتب التي بين أيدينا، فلا يأتي بالمرفوعات كلها على حدة ثُمَّ المنصوبات والمجرورات مثلًا، بل بعضها ممزوج ببعض، كما رأينا ذلك وأنا أسرد أبواب الكتاب، فينتقل من الفاعل إلى المفعول، ثُمَّ بعد أبواب كثيرة يذكر المبتدأ والخبر، وهكذا.

ثانيًا: لا يسير في ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقية الدقيقة، فيقدِّم أبوابًا من حقِّها أن تتأخَّر، ويؤخِّر أبوابًا من حقِّها أن تتقدَّم، ويضع فصولًا في غير موضعها الطبيعي، فهو يتحدَّث عن المسند إليه والمسند، وكان من اللائق أن يستوفي أبواب المسند إليه، من مبتدأ وفاعل وغيرهما، ثُمَّ يعود إلى المسند ليستوفي أنواعه وأحكامه، ولكنه لم يتبع ذلك، وكثيرًا ما تقول — وأنت تقرأ الكتاب — ليت ذلك الباب وُضع هنا، أو ليت ذلك الفصل قد انتقل إلى هناك.

ثالثًا: يذكر سيبويه الباب العام، ثُمَّ يعقد لكل مسألة من مسائله تقريبًا بابًا خاصًّا يُعالجها، فهو يُعَنوِن مثلًا للتصغير، ويذكر صيغه المختلفة، ثُمَّ يعقد أبوابًا للمسائل الجزئية فيه، فتجد بابًا لتصغير ما يكون على خمسة أحرف، وآخر لتصغير المضاعف، وبابًا لتصغير ما كان على ثلاثة أحرف ولحقته الزيادة للتأنيث، وأبوابًا أخرى لفروع التصغير المختلفة.

رابعًا: يذكر مسائل في أبواب نضعها نحن تحت عنوانات أخرى، فمثلًا هو يعدُّ في أبواب الفاعل بابًا للفاعل الذي لم يتعدَّه فعله إلى مفعول، وبابًا آخر للفاعل الذي يتعدَّاه فعله إلى مفعول، وبابًا ثالثًا للفعل الذي يتعدَّاه فعله إلى مفعولين، بينما نحن الآن نضع ذلك تحت عنوان الفعل المتعدي واللازم.

خامسًا: لا يذكر دائمًا مسائل الباب الواحد سلسلة متصلة متتابعة، بل يذكر بعضها في موضع وبعضها الآخر في موضع ثانٍ، بعد أن يفصل بينهما في كثير من الأحيان بأبواب أخرى، وتذكر هذه المسائل لمناسبات تستدعيها.

سادسًا: إنَّ الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرَّت بعدُ؛ ومن أجل ذلك نجدُه يضع عناوين طويلة لأبواب، وغالبًا ما تكون هذه العناوين غير مفهومة لنا، فترى نفسك مضطرًّا إلى العودة إلى صلب الكتاب لتفهم المقصود منها، وقلَّما تجد عنوانًا مفهومًا لك في هذا الكتاب، وحسبُك أن تعلم أنه وَضَع لإنَّ وأخواتها هذا العنوانَ: «هذا باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده، وهي من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التي بمنزلة الفعل، ولا تُصرَّف تَصرُّف الأفعال، كما أن عشرين لا تُصرَّف تصرُّف الأسماء التي أُخذت من الفعل وكانت بمنزلته، ولكن يُقال بمنزلة الأسماء التي أُخِذت من الأفعال وشُبِّهت بها في هذا الموضع، فنصبت درهمًا لأنه ليس من نعتها، ولا هي مضافة إليه، ولم ترد أن تحمل الدرهم على ما حُمِل العشرون عليه، ولكنَّه واحد بُيِّن به العدد، فعملت فيه كعمل الضارب في زيد، إذا قلت: هذا ضاربٌ زيدًا؛ لأن زيدًا ليس

من صفة الضارب ولا محمولًا على ما حُمل عليه الضارب، وكذلك هذه الحروف منزلتُها من الأفعال»، وبعد ذلك كله يقول: وهي إنَّ ولكنَّ وليت ولعلَّ وكأنَّ. ويضع عنوانًا لباب كان وأخواتها قوله: «وهذا باب الفاعل الذي يتعدَّى اسم الفاعل إلى اسم المفعول، واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد».

ويضع عنوانًا للمفعول لأجله قوله: «هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه عذر».

ويدلُّنا على أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرَّت أنه لم يضع لأسماء الإشارة أسماء، بل دعاها: الأسماء المُبهَمة، كما كان يدعو التسكين: جزمًا، فيقول: وجزمت لدنه، ويُسَمِّي المقصور: منقوصًا، وغير ذلك كثير.

سابعًا: يذكر القاعدة وأمثلتها، ويمزج ذلك بالتعليلات المنطقية، وبيان وجه القياس فيما يذكره من القواعد، وعرض الآراء المختلفة في الموضوع الواحد.

ثامنًا: يفرض فروضًا يضع لها أحكامًا، فيقول مثلًا (ص٢/٣): «ولو جاء في الكلام شيء نحو أكلل وأيقة فسمَّيت به رجلًا صَرَفته؛ لأنه لو كان أفعل لم يكن الحرف الأول إلا ساكنًا مدغمًا»

تاسعًا: لم تكن الأبواب قد تميَّز بعضها من بعض التميُّزَ الكافي، ويدلُّنا على ذلك باب التمييز وباب التعجب، ممَّا لم تتحدَّد معالمه التَّحدُّدَ الواضح في كتاب سيبويه.

مصادر الكتاب

من المستبعد أن يظهر كتاب شامل في النحو والصرف ككتاب سيبويه من غير أن يكون قد سبقته محاولات اقتبس منها، وسار على هُداها، وهم يقولون لذلك: إن سيبويه قد اقتبس ممَّن سبقه، ولا سيَّما عيسى بن عمر الثقفي، الذي ألَّف كتابين في هذه المادة، سمَّاهما: الإكمال والجامع، ويروون أن الخليل قال فيهما:

ذهب النحو جميعًا كله غير ما أَحدَث عيسى بن عمر

ذاك إكمالٌ، وهذا جامعٌ فَهُما للناس شمسٌ وقمر

غير أن هذين الكتابين لم يَبقيا، وعَفى على آثارهما كتاب سيبويه، ومن الحق أن نعد كتاب سيبويه ثمرة لكلِّ الجهود التي قام العلماء والمؤلفون بها، منذ بدأ أبو الأسود النحو، فجمع سيبويه ما تفرَّق في كتبهم، وما استشهدوا به من شعر، ورتَّبه ونظَّمه، وأضاف إليه ما سمعه بنفسه.

وهكذا يجب أن نفهم ما قاله ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانًا، منهم سيبويه، والأصول والمسائل للخليل؛ فليس معناه أن واحدًا وأربعين إنسانًا اشتركوا مع سيبويه في تأليف كتابه، ولكن معناه أن سيبويه قد انتفع بعلم من سبقه — وقد كانوا كثيرين — وبنتائج أبحاثهم

إيجابيات الكتاب:

يحمد لسيبويه أنه أسس للتأليف النحوي، فكل كتاب في النحو هو عيال على سيبويه، ولعل هنا تكم أهميته.

موقف الأقدمين منه

قال الجاحظ: أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات، ففكَّرت في شيء أُهديه له، فلم أجد شيئًا أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهديَ لك شيئًا، ففكَّرت فإذا كل شيء عندك، فلم أرَ أشرف من هذا الكتاب، وهذا كتاب اشتريتُه من ميراثِ الفرَّاء. قال: والله ما أهديت إليَّ شيئًا أحبَّ إليَّ منه.

وذكر صاعد بن أحمد الجياني من أهل الأندلس في كتابه قال: لا أعرف كتابًا أُلِّف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب؛ أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك، والثاني كتاب أرسطاطاليس في علم المنطق، والثالث كتاب سيبويه البصري النحوي، فإن كلَّ واحد من هذه لم يشذَّ عنه من أصول فنِّه شيء إلا ما لا خطر له.

وقال السيرافي: كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله عَلَمًا عند النحويين، فكان يُقال بالبصرة: قرأ فلان الكتاب، فيُعلَم أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، ولا يُشكُّ أنه كتاب

سيبويه، وكان محمد بن المبرد إذا أراد مريدٌ أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له: هل ركبت البحر؟ تعظيماً له واستصعاباً لما فيه.

وكان المازني يقول: من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه، فليَسْتَحِ.

وقال الزمخشري في هذا الكتاب:

ألا صَلَّى الإلهُ صلاةَ صَدْقٍ على عَمْرو بن عُثْمان بن قنبر

فإنَّ كِتابَه لم يُغْنِ عنه بنو قَلَمٍ ولا أبناءُ مِنْبَر

تلك كانت نظرة الأقدمين إلى كتاب سيبويه نظرة التقدير والتعظيم، ولم يقتصر إجلال الكتاب على المعجبين بسيبويه، بل كان خصومه في تقديره والارتفاع به كالمُحبِّين، حدَّث الأخفش — كما سبق أن روينا — أنه قرأ كتاب سيبويه على الكسائي في جمعة، فوهب له سبعين ديناراً، قال: وكان الكسائي يقول له: «هذا الحرف لم أسمعه، فاكتبه لي، فأفعل.»

قيل: فكأن الجاحظ سمع هذا الخبر، فقال مما يُعدِّده من فخر أهل البصرة على أهل الكوفة: وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان، وبسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله!

وحدَّث أبو الطيب اللغوي عن أبي عمر الزاهد قال: قال ثعلب يوماً في مجلسه: مات الفرَّاء (وهو كوفيٌّ كما نعلم) وتحت رأسه كتاب سيبويه[٢٠].

المآخذ :

- هناك بابان لا ندري لماذا وضعا في إطار الإشتقاق، ومكانهما في علم النحو(باب القسم وباب التنوين).
- هناك بعض الزيادات كما يذكر السيرافي، وقد قيل أنه من صنع النساخ.
- اختلاط العلوم اللغوية.
- المصطلح الذي غيره مصطلح غير واضح.
- هناك عنوانات لم يتطرق إليها.
- كان يدخل مباشرة في الباب، ويتحدث بما في جعبته.
- لم ينسب الشواهد لأصحابها.

[٢٠] سيبويه حياته وكتابه، أحمد أحمد بدوي، مؤسسة هنداوي.

كتابا النكت في إعجاز القرآن للرماني، وإعجاز القرآن للباقلاني

- كتاب النكت في إعجاز القرآن للرماني.
- كتاب إعجاز القرآن للباقلاني.
- الموازنة بين الكتابين.

النكت في إعجاز القرآن

للرماني

المؤلف

هو أبو الحسن على ابن عيسي الرماني ، الذى ولد سنة ست و تسعين و مائتين من الهجرة بمدينة سامرا ، أو بغداد ، و نشأ نشأة فقيرة و اشتغل بطلب العلم ، و استعان على كسب قوته بالوراقة ، و أخذ اللغة و النحو على جماعة من شيوخ العلم مثل : أبي بكر بن دريد ، و أبي بكر السراج ، و الزجاج .

و كان الرماني محبا للعلم ، واسع الاطلاع ، متقنا للأدب و علوم اللغة و النحو ، لذلك لقب بالنحوي المتكلم شيخ العربية و صاحب التصانيف ، و كان إلى جانب ذلك ميالا لعلوم المنطق و الفلسفة و النجوم ، و يبدو أثر هذه العلوم في تصانيفه و أسلوب تأليفه .

و لقد برع الرماني في علوم شتى من هذه العلوم علوم القرآن و التفسير و ألف فيها ، و كانت له مشاركة في الحياة العامة في بغداد ، و في أحداثها السياسية الهامة ، و كان محبوبا مقدرا عند العامة و الخاصة ، توفى سنة ست و ثمانين و ثلاثمائة للهجرة بعد حياة حافلة .

و للرماني مكانة عند معاصريه تتضح لنا فيما كتبه عنه معاصره أبو حيان التوحيدي إذ قرر أنه لم ير مثله قط علما بالنحو ، و غزارة في الكلام ، و بصرا بالمقالات و استخراجا للعويص ، و إيضاحا للمشكل .

و قال عنه ابن سنان : إنه ذو مكان مشهور في الأدب و ممن اعتمد عليه و نقل عنه من العلماء : ابن رشيق ، و ابن سنان ، و ابن أبي الأصبع العدواني المصري و السيوطي .

مؤلفاته

ألف الرماني كتبا كثيرة نذكر منها : التفسير الكبير ، و الجامع في علوم القرآن ، و النكت في إعجاز القرآن ، و شرح معاني القرآن للزجاج ، و شرح كتابي المدخل و المقتضب للمبرد ، و شرح كتاب سيبويه و نكت سيبويه ، و شرح الألف و اللام للمازني ، و كتاب التصريف ، و كتاب الهجاء ، و كتاب الإيجاز في النحو ، و كتاب المبتدأ في النحو و غيرها من الكتب .

الرماني و آراؤه حول الإعجاز القرآني

صاغ الرماني رسالته " النكت في إعجاز القرآن " في صورة جواب عن سؤال وجه إليه طالبا بيان النكت في إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج ، و هو يستهل الرسالة برد هذه النكت إلى سبع جهات ، هي :

١-ترك المعارضة مع توفر الدواعي و شدة الحاجة.

٢-التحدي للكافة .

٣-الصرفة.

٤-البلاغة .

٥-الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة .

٦-نقض العادة .

٧-قياسه بكل معجزة.

مع أن الرماني رتب وجوه الإعجاز بالصورة الآنفة الذكر ، إلا أنه بدأ حديثه عن البلاغة متناسيا الوجوه الثلاثة الأولى ، ليدلل على أنه مشغول بشأن البلاغة .

الوجه الأول من وجوه الإعجاز : البلاغة

يبتدىء حديثه عنها ، فيقول أنها على ثلاث طبقات : عليا ووسطى و دنيا ، و العليا هي بلاغة القرآن ، و الوسطى و الدنيا بلاغة البلغاء حسب تفاوتهم في البلاغة ، ثم يمضي بعد ذلك فيعرف البلاغة بأنها : إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صوره من اللفظ ، ثم يذكر بعد ذلك أقسام البلاغة ، و هي عشرة عنده :

يبدأ بالإيجاز ، فالتشبيه ، و الاستعارة ، و التلازم ، و الفواصل ، و التجانس ، و التصريف، و التضمين ، و المبالغة ، و حسن البيان .

فيعرف الإيجاز بأنه :" تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى " و يشرح التعريف ، ثم يذكر قسميه : إيجاز الحذف ، و إيجاز القصر معرفا لهما ، و ذاكرا أمثلة من القرآن الكريم ، و يوازن الرماني بين قوله تعالى :" و لكم في القصاص حيوة " و قول العرب : " القتل أنفى للقتل " فيذكر أن النص القرآني يمتاز بأربعة أوجه:

أنه أكثر فائدة ، و أوجز في العبارة و أبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، و أحسن بتأليف الحروف المتلائمة ، ثم يختم حديثه بذكر الفرق بين الإيجاز و التقصير ، و بين الإطناب و التطويل .

و يتحدث عن التشبيه فيعرفه بقوله : هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل ، و من خلال التعريف يرى الرماني أن التشبيه حسي و عقلي ، فالحسي كماءين و ذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر و نحوه ، و العقلي نحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو ، فالقوة لا تشاهد و لكنها تعلم سادة مسدة أخرى ، و ترجع بلاغة التشبيه في رأي الرماني إلى ما يؤدي إليه من بيان ، و يقع على وجوه أربعه : إخراج ما لا يقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، إخراج ما لم تجر به عادة إلى ما جرت به عادة ، إخراج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة ، إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى قوة في الصفة ، مستشهدا لكل قسم بشواهد قرآنيه مما جعل جهده يمثل خطوة واسعة على طريق البحث البلاغي .

و يتحدث عن الاستعارة فيعرفها بقوله : " هى تعلية العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة ، و يفرق بينها و بين التشبيه ذاكرا أركانها : مستعار ، و مستعار له ، و مستعار منه ، و يشير إلى تعريف الاستعارة البليغة بقوله :

كل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر كالتشبيه ، إلا أنه بنقل الكلمة و التشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة ، متبعا دراسته بالشواهد القرآنية .

و يتحدث عن التلاؤم فيعرفه بقوله " التلاؤم نقيض التنافر" ، و يقسمه إلى ثلاثة أوجه : متنافر ، و متلائم في الطبقة الوسطى ، و متلائم في الطبقة العليا ، و يذكر بعد ذلك أمثلة من القرآن الكريم و الأبيات الشعرية .

و يتحدث عن الفواصل فيعرفها بقوله : هى حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني " ثم يعلق قائلا : الفواصل بلاغة ، و الأسجاع عيب ، و يورد الخلاف بين العلماء في حكم تسمية ما في القرآن سجعا ذاكرا حجج الممانعين و إجابة المجيزين في ذلك .

و يتحدث عن التجانس فيعرفه قائلا هو : بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة " ثم يقسمه إلى قسمين :

تجانس مزاوجة ، و تجانس مناسبة ، و يمثل له .

و يتحدث عن التصريف و هو على غير عادته لم يعرفه ، و لكنه اكتفى بذكر قسميه : تصريف المعنى في المعاني المختلفة ، و تصريف المعنى في الدلالة المختلفة ، و يستشهد بما ذكر بأمثلة من القرآن الكريم .

و يتحدث عن التضمين فيعرفه قائلا هو : حصول معنى فيه من غير ذكر له باسم أوصفه هى عبارة عنه " ، ثم يذكر نوعيه : ما يدل عليه الكلام دلالة الإخبار ، و ما يدل عليه الكلام دلالة قياس ، و يذكر أمثلة .

و يتحدث عن المبالغة ، فيعرفها قائلا هى : الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة ، ثم يذكر وجوهها و هي : التعبير بصيغة تدل على المبالغة ، استخدام الصيغة العامة في موضوع الخاصة ، إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة ، إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة، حذف الأجوبة للمبالغة، و يستشهد على ما ذكر بأمثلة من القآن الكريم .

و يختم حديثه عن البلاغة بذكر باب البيان فيعرفه قائلا هو : الاحضار لما يظهر به تمييز الشيء من غيره في الإدراك ، و يقسمه إلى أربعة أقسام : كلام ، وحال ، و إشارة ، و علامة ، و يدل على ذلك بأمثلة من القرآن الكريم .

الوجه الثاني من وجوه الإعجاز : ترك المعارضة مع توفرالدواعي و شدة الحاجة .

بدأ الرماني حديثه بقوله : أما توفر الدواعي ، فيوجب الفعل مع الإمكان لا محالة في واحد كان أو جماعة ثم يذكر دليلا على ذلك مفاده ، لو أن إنسانا توفرت الدواعي فيه إلى شرب ماء بحضرته من جهة عطشه و استحسانه لشربه و كان داع يدعو إلى مثله ، و هو مع ذلك ممكن له ، فلا يجوز ألا تقع منه حتى يموت عطشا لتوفر الدواعى ، فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه عنه ، فكذلك توفر الدواعي إلى المعارضة بالنسبة للقرآن فلما لم تقع دل على أنه معجز.

الوجه الثالث من وجوه الإعجاز : التحدي للكافة

يقول الرماني في هذا الوجه " و أما التحدي للكافة فهو أظهر في أنهم لا يجوز أن يتركوا المعارضة مع توفر الدواعي إلا للعجز عنها "، و الصحيح أن هذين الوجهين – أعني الثاني و الثالث – لا يعدان من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، و إنما هما من الدلائل التى تثبت إعجازه ، لأن أي معجزة يشترط لها شرطان لا بد من توفرهما في سائر المعجزات، و كذا القرآن الكريم ، لكنهما لا يعتبران من أوجه إعجازه الخاصة .

الوجه الرابع من وجوه الإعجاز : الصرفة

يبدأ الرماني حديثه عن هذا الوجه بتعريفه فيقول " و أما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة ، و على ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة ، و ذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على

النبوة و في هذا دلالة على أن ناقل عن غيره ، و تابع له يدل على ذلك قوله " و هذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول ، و مما يفيد البحث و يثريه أن أوضح مذاهب العلماء و أقوالهم في عد الصرفة وجها من وجوه الإعجاز ، أو عدم عدها موردا رأي العلماء حول هذه القضية حيث انقسموا إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : ذهبت إلى القول بأن الله صرف العرب عن معارضة القرآن ، و قد كان في قدرتهم أن يعارضوه ، و يأتوا بمثله لولا أن الله حال بينهم و بين هذا الغرض ، فصرف همهم عن منافسته و مباراته على الرغم من شدة الدوافع الداعية لذلك ؛ كالتقريع بالعجز و تسفيه العقول و ذم الآلهة و الآباء ، فصار العائق عن معارضتهم للقرآن أمرا خارجا عن ذات القرآن ، و كان على رأس هذه الفرقة ، إبراهيم بن سيار ، الشهير بالنظام ت (٢٢٤هـ) فهو أول من جاهر بهذا القول و أعلنه ، و دعاء إليه ، و دافع عنه.

الفرقة الثانية : ذهبت إلى القول بالصرفة و عدت الصرفة وجها من وجوه الإعجاز ، فهي متابعة للفرقة الأولى ؛ لكن مضمون كلاهما عن قولها ، فممن نحا هذا المنحى الجاحظ في كتابه المفقود "نظم القرآن " فعنه يقول في أحد كتبه و بلغت منه أقصى ما يمكن مثلى الاحتجاج للقرآن ، و الرد على كل طعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ، و لا لحديثي و لا لحشوي و لا لكافر مياد ، و لا لمنافق مقموع ، و لا لأصحاب النظام ممن يزعم أن القرآن حق ، و ليس تأليفه بحجة ، و أنه تنزيل و ليس ببرهان و لا دلالة .

الفرقة الثالثة : اتجهت اتجاها آخر و هو معارضة القول بالصرفة بتاتا ، ممن نحا هذا المنحى الخطابي في كتابه بيان إعجاز القرآن فهو يقول : إن قوما ذهبوا إلى العلة في إعجازه الصرفة ، أي صرف الهمم عن المعارضة ، و إن كانت المعارضة مقدورا عليها، إلا أن صرف الله لهم عنها لما كان أمرا خارجا عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات ، ثم يورد رأيه بقوله : إلا لاأن دلالة الآية تشهد بخلافه و هي قوله سبحانه : " قل لئن اجتمعت الإنس و الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا " فأشار في ذلك إلى أمر طريقة التكلف و الاجتهاد و سبيله التأهب و الاحتشاد ، و المعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها .

وممن أخذ بهذا القول الباقلاني في كتابه: " إعجاز القرآن " نلحظ ذلك في حديثه عن الصَّرفة حيث يقول: " على أنه لو كانوا صرفوا على ما ادعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم وعجيب الرصف، لأنهم لم يتحدوا إليه ولم يلزمهم حجته، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله علم أن ما ادعاه القائل بالصِّرفة ظاهر البطلان.

وهكذا تبين لنا بعد استعراض مذاهب العلماء حول القول بالصَّرفة، أن أصح هذه الأقوال هو القول الثالث لمطابقته لظاهر الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين .

الوجه الخامس من وجوه الإعجاز: الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.

بدأ هذا الوجه وختمه بذكر الآيات التي ورد بها الخبر الصادق عن الأمور المستقبلة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ الأنفال: ٧

حيث يعلق الرماني بقوله: " فكان الأمر كما وعد من الظفر بإحدى الطائفتين العير التي كان فيها أبو سفيان، أو الجيش الذي خرجوا يحمونها من قريش، فأظفرهم الله عز وجل بقريش يوم بدر على ما تقدم به الوعد "

الوجه السادس من وجوه الإعجاز: نقض العادة.

يقول الرماني في هذا الوجه: إن القرآن الكريم قد جاء بطريقة في التعبير خارجة عما اعتاده العرب، فأنواع الكلام عندهم، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث، وطريقة القرآن تغاير هذه الطرق كلها، ولها منزلة تفوق به كل طريقة.

الوجه السابع من وجوه الإعجاز: قياسه بكل معجزة.

يعني به أن المعجزة في جوهرها إنما تكون في أمر خارج عن العادة، وفي عجز الناس عن معارضته، وبهذا المقياس فإن القرآن الكريم معجزة سبيله في ذلك سبيل فلق البحر، ثم

يعرض تساؤلا مفاده " لعل السور القصار ممكن للناس معارضتها " فيجيب: بأن التحدي قد وقع بها فلم يخص بالطوال دون القصار.

وهنا نصل إلى نهاية المطاف عند الرماني بعد استعراضنا لكتابه، ويحق لنا أن نسجل له هدفه الأصيل، وهو الكشف عن البلاغة القرآنية، وإبراز دلائل إعجازها، والذي بدأ واضحا في حديثه عن أبوب البلاغة العشرة، وما قدمه من شواهد قرآنية، ونكت بلاغية، وموازنات بين النصوص رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير الجزاء.

إعجاز القرآن

للباقلاني

المؤلف

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلاني البصري، ولد عام ثمانية وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وهو من أهل البصرة وسكن بغداد، يتبع مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ويؤيد اعتقاده، ويناصر طريقته، كان في علمه أوحد زمانه، موصوفا بجودة الإستنباط، وسرعة الجواب، كثير التطويل في المناظرة عند الجماعة.

مشايخه وتلاميذه:

سمع الحديث في بغداد من أبي بكر بن مالك القطيعي، وأبي محمد بن ماسي، وأبي أحمد الحسين بن علي النيسابوري، وقد أخذ علم النظر عن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي صاحب الأشعري.

مؤلفاته:

أمّا التأليف فقد أسهم فيه الباقلاني بنصيب موفور، وكان من عادته إنه إذا صلى العشاء وقضى وِرده وضع أدواته بين يديه وكتب خمساً وثلاثين ورقة من حفظه فإذا صلى

الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه ليلته وأمره بقراءته عليه وأملى عليه من الزيادات ما يلوح له فيه، وكان يهمّ بأن يختصر ما يصنّفه فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حِفْظه، ويروى أنّ أبا بكر الخوارزمي كان يقول: «إنّ كلّ مصنِّف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه، سوى الباقلاني فإنّ صدره يحوي علمه وعلم الناس»[٢١]

ومن المشهور أنّ الباقلاني صنّف سبعين ألف ورقة في الدفاع عن الدِّين[، وألّف نيفًا وخمسين كتابًا في الردّ على المخالفين والملحدين والمتفلسفين من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وغيرهم، وأشهر كتبه: إعجاز القرآن ، والانتصار، وكشف الأسرار الباطنية، والملل والنحل، ومناقب الأئمة، ونهاية الإيجاز في رواية الإعجاز، وهداية المسترشدين في الكلام، والإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به.

وكان الباقلاني من العلماء الذين جمعوا بين العلم والعمل والزهد والتقوى، وكان وِرده في كلّ ليلة عشرين ترويحة في الحضر والسفر، وكان ما يضمره من الورع والدِّين أضعاف ما كان يظهره، فقيل له في ذلك فأجاب: "إنما أُظهر ما أظهره غيظًا لليهود والنصارى والمعتزلة والرافضة؛ لئلا يستحقروا علماء الحقّ"[٢٢]، ويروى أنا أبا عبد الله بن مجاهد

---

[٢١] تاريخ بغداد، (٥/ ٣٨٠)

(٢٢) سير أعلام النبلاء، (١٧/ ١٩١- ١٩٢).

الطائي –أستاذ الباقلاني– رآه في المنام بعد موته وعليه ثياب حَسَنة في رياض خضرة ونضرة وسمعه يقرأ: «في عيشة راضية في جنة عالية»[٢٣]

وفاته:

توفي القاضي أبو بكر الباقلاني آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد– رحمه الله تعالى– وصلى عليه ابنه الحسن، ودفنه في داره بدرب المجوس ثم نُقل بعد ذلك، فدفن في مقبرة باب حرب، يقول عنه صاحب الوفيات:كان في علمه أوحد زمانه، انتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفا بجودة الإستنباط، وسرعة الجوب، وكان كثير التطويل في المناظرة، مشهورا بذلك عند الجماعة.

الباقلاني وآراؤه حول الإعجاز القرآني:

ذكر في مقدمة كتابه(إعجاز القرآن) بعد حمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أن القرآن الكريم كتاب يتضمن صدق محتمله، ورسالة تشمل على تصحيح قول مؤديها، بيّن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها، أو حجة تتلوها، ثم يقول أيضا: "ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأولى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قواما، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاما، وعلى صدق نبيهم –صلى الله عليه وسلم– برهاناً، ولمعجزته ثبتا وحجة لا سيما والجهل ممدود الرواق" ولقد اشتكى الباقلاني

---

[٢٣] شذرات الذهب، (٣/ ١٧٠).

من تقصير العلماء في البحث حول إعجاز القرآن ، فيقول:"إن بسط القول في الإبانه عن وجه معجزته أحق بكثير من الذين صنفوا من القول في الخبر ودقيق الكلام في الإعراض، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به واجب"[٢٤].

ثم يلتمس العذر لأولئك العلماء قائلا :" وقد يعذر بعضهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه؛ لأن هذا الباب ما يمكن إحكامه بعد في التقدم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ" ثم ذكر بعد ذلك أن الجاحظ ألف كتابا وأسماه(نظم القرآن)، لكنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى".

وهنا يظهر أن الباقلاني قد تحامل على الجاحظ، ولعل تفسير ذلك أن الجاحظ من رؤوس المعتزلة، والباقلاني من رؤوس الأشاعرة، ومعلوم ما بين المذهبين من خلاف.

الكتـــاب

يعد كتاب (إعجاز القرآن) للباقلاني من أهم الكتب التي تتحدث عن قضايا الإعجاز القرآني وأنضجها، وهو في الوقت ذاته من المصادر البلاغية الأساسية، التي أسهمت في تحديد مسار البلاغة.

---

[٢٤] إعجاز القرآن للباقلاني، صـــ٢١.

منهجه في الكتاب

يبدأ الباقلاني حديثه عند كل باب بتساؤل، ثم يبدأ بالإجابة على ذلك التساؤل، وقد نجد في الباب أكثر من تساؤل، ويتصف كتاب الباقلاني وأسلوبه بالتماسك، حتى إنك لا تحس بطوله، ومما يلحظ عليه كثرة تقسيماته، والتكرار في بعض أبوابه، ولمذهبه أثر كبير في كتابه، وفي عرضه للاستشهاد يتصف كتاب الباقلاني بالتنوع بين الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال العرب وأشعارهم، وفي نقله ممن سبقه نجد أن الباقلاني يكثر من ذكر " ذهب أصحابنا " ويقصد بهم الأشاعرة، وهو في نقله يشير إلى من سبقه، ولكنه في باب " أقسام البلاغة العشرة " التي ذكرها لم يشر إلى من نقل عنه –وهو الرماني– والذي يظهر أن سبب ذلك اختلاف المذهبين بينهما.

إن القضايا البلاغية ومباحثها المتعددة تختلط في الكتاب بالقضايا الكلامية اختلاطا متوازنا، فتنفرد القضايا البلاغية ببعض الفصول، وكذلك الفصل الطويل الذي خصصه للحديث عن البديع من الكلام، وذلك في الفصل الأخير (عن وصف وجوه البلاغة) الذي يتتبع فيه وجوه البلاغة العشرة، التي سبق أن أوردها الرماني في كتابه(النكت في إعجاز القرآن).

وتنفرد القضايا الكلامية ببعض فصول الكتاب، كذلك الفصل الذي عده في أول الكتاب عن: أن نبوة النبي –صلى الله عليه وسلم–معجزتها القرآن، والبعض الثالث من فصول الكتاب شركة بين القضايا الكلامية والقضايا البلاغية؛ كالفصل الذي كتبه "عن

جملة وجوه إعجاز القرآن" حيث يحصر الإعجاز القرآني في هذا الفصل في مجموعة وجوه؛ بعضها كلامي، وبعضها بلاغي، والذي يهمنا هو التعرف على المباحث البلاغية في كتابه(إعجاز القرآن) ومدى تمثلها لطبيعة عصره، وأن نتعرف على إسهاماتها في تطوير البحث البلاغي من ناحية أخرى، نظرة فاحصة في الفصل الذي عقده الباقلاني "في جملة وجوه إعجاز القرآن" نجد أنه حدد وجوه الإعجاز في ثلاثة وجوه أساسية، ينقلها عن أساتذته الأشاعرة:

أولها: إخباره الصادق عن الغيوب، الأمر الذي يخرج عن طوق البشر واستطاعتهم، فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيّه –صلى الله عليه وسلم– أنه سيُظْهِر دينه على الأديان بقوله –عز وجل–: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[التوبة: ٣٣]. ففعل ذلك .

وثانيها: إخباره عن قصص الماضيين وسِيَر الأمم الخالية منذ عهد آدم عليه السلام، وحتى بعثة النبي–صلى الله عليه وسلم– على الرغم من أمية النبي–صلى الله عليه وسلم– وعدم معرفته شيئا عن كتب المتقدمين، وقصصهم، وأخبارهم.

ثالثا: نظمه البديع، وتأليفه العجيب، وبلاغته المتناهية التي يعجز البشر عن محاكاتها

بيد أن الباقلاني لا يقف طويلا أمام الوجهين الأولين بل يوجه جل عنايته إلى الوجه الثالث البلاغي ، حيث يحاول بطريقته الخاصة– طول الكتاب–أن يثبت تميز الأسلوب

القرآني، والبلاغة القرآنية على أسلوب البشر وبلاغتهم، وينهج في ذلك نهجا جديدا مغايرا للمناهج التي انتجها السابقون في إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن.

فهو يرفض فكرة إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن عن طريق ما فيه من البديع، وذلك لأنه على حد تعبيره "لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوّه في الشعر ووصفوه فيه؛ وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة، ويخرج عن العرف بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به، والتصنع له، كقول الشعر ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق يُسلم، ووجه يقصد، وسلم يُرتقى فيه إليه"[٢٥].

أي أن البديع ببساطة لا يخرج عن طوق البشر، فلا يعجز أي إنسان أن يأتي في كلامه بتشبيه، أو استعارة، أو طباق؛ لأن البديع في حد ذاته غير معجز، وإنما المعجز هو الصورة الباهرة التي وجد عليها في القرآن، واتساقه مع سائر النظم القرآني اتساقا عجيبا ورائعا، بينما نجد أن الشعر والنثر البشري يحتوي على التشبيه البليغ أو الاستعارة الجيدة، ولكن يوجد إلى جوارها التعبير الساقط، واللفظ المبتذل، وهذا ما اجهد الباقلاني نفسه لإثباته.

والباقلاني يستخدم مصطلح البديع بمفهومه العام الشامل الذي كان متعارفا عليه في عصره، فالبديع عنده يشمل كل المباحث والفنون البلاغية، أي أنه يضم مباحث علوم البلاغة الثلاثة، التي لم تكن في عصره قد تحددت وتمايزت واستقلت، وهي (البيان،

---

[٢٥] إعجاز القرآن للباقلاني، صـــ١١١.

والمعاني، والبديع)، فهو مثلا يرى أن الاستعارة والتشبيه من البديع، وهما كما نعلم أصبحا – فيما بعد– من أهم مباحث علم البيان، كما أنه يعتبر المساواة وبعض صور الإطناب من البديع، ونحن أنهما أصبحا من موضوعات علم المعاني.

والسبيل إلى معرفة إعجاز القرآن جاء محور الفصل الثامن الذي خصّه الباقلاني لتحديد «كيفية الوقوف على إعجاز القرآن»، وقد لاحظ أنه لا يقف على الإعجاز إلا مَن عرف معرفة بيّنة وجوه البلاغة العربية، وتكوّنت له فيها مَلكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام، بحيث يميز بين نمط شاعر وشاعر ونمط كاتب وكاتب، وبحيث يعرف مراتب الكلام في الفصاحة، وهذا كما يميّز أهل كلّ صناعة صنعتهم، فقال: «ومتى تقدّم الإنسان في هذه الصنعة لم تَخْفَ عليه هذه الوجوه ولم تشتبه عنده هذه الطرق، فهو يميز قدر كلّ متكلّم بكلامه، وقدر كلّ كلام في نفسه ويحلّه محلّه، ويعتقد فيه ما هو عليه ويحكم فيه بما يستحقّ من الحكم، وإن كان المتكلّم يجود في شيء دون شيء عرف ذلك منه، وإن كان يعمّ إحسانه عرف»[٢٦].

وبهذا المفهوم نستطيع أن نلاحظ أن الباقلاني يردّ المسألة إلى الذّوْق وحُسن تدرّبه على تمييز أصناف الكلام، ولقد دفعه هذا الفهم إلى أن يسوق طائفة من خُطب الرسول – صلى الله عليه وسلم– ورسائله ومن خطب الصحابة وغيرهم ليلمس القارئ فرق ما بين ذلك كلّه وبين القرآن، ولم يقف فيها من وجوه الفصاحة على ما يقع التفاضل الذي ينتهي

---

[٢٦] إعجاز القرآن للباقلاني، صـــ١٢٠.

إلى حدّ الإعجاز، ثم ردّ على ما يزعمه المجوس من أنّ كتابي زرادشت وماني، معجزان لأنهما زاخران بالشعوذة، كما ردّ ما يُزعَم من أنّ ابن المقفع عارض القرآن بكتابه اليتيمة، وقال: «إنّ ما به من حكمة يوجد عند كلّ أمة، على أنه نقل حكمه عن كتاب بزرجمهر، حكيم الفرس المشهور فليس له فيها فضل ولا مزية»[٢٧].

آراء بعض الكتاب في كتاب (إعجاز القرآن)

تحدث الدكتور/ شوقي ضيف عن رأيه في كتاب الباقلاني بقوله:" وواضح مما سبق أن الباقلاني لم يزد في كتابه عن شرحه أو قل بعبارة أدق عن محاولة شرحه لما قاله الجاحظ من جمال النظم القرآني، وما قاله الرماني من أنه يردُّ تفسير هذه المرتبة بوجوه البديع التي عدها ابن المعتز وقدامة وأبو أحمد العسكري وغيرهم، كما ردَّ تفسيرها بوجوه البلاغة التي ذكرها الرماني إلا أن يلاحظ في ذلك كله النظم وروعة التأليف، فالمدار قبل كل شيء على الصياغة والنظم.

وعلق الدكتور/ عبد الغني بركة على كتاب الباقلاني بقوله: " فقد أبلى الباقلاني رحمه الله بلاءً حسنا، وكان رائدا في جوانب تفرد بها حين رأى أن الإعجاز لا يُستفاد من صور البديع وألوان البلاغة منفردة وإنما يستفاد من النظم ككل متميز بخصائص لا يشاركه فيها غيره، وحين أثبت أن القرآن لا يتفاوت في بلاغته مهما اختلف أسلوب عرضه، وحين

---

[٢٧] المرجع السابق،صـــ٣٢.

ننظر إلى السورة ككل متكامل مترابط يحقق غاية محددة وإذا كنا لم نرتض بعض آرائه، فإن ذلك إنما إلى طبيعة هذه الأمور التي تحتمل وجهات النظر[٢٨].

[٢٨] الإعجاز القرآني بين الرماني والباقلاني عرض وموازنة، د. صالح بن أحمد بن سليمان العلوي، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد الخامس عشر،١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م .

الموازنة بين الكتابين

طريقتهما في العرض، والاستشهاد، والنقل عن الآخرين.

يبدأ الرماني حديثه عند كل باب بتعريفه، ثم يحدد مجاله، ويبدأ بسرد تقسيماته، ثم يتبعها بالأمثلة، وهو يركز في الشواهد على الآيات القرآنية، وبعض أقوال العرب، كما أنه في نقله عمن سبقه لا يشير إليه إلا ما ندر.

أما الباقلاني، فهو يبدأ حديثه عند كل باب بتساؤل، ثم يبدأ بالإجابة على ذلك التساؤل، وقد نجد في الباب أكثر من تساؤل، ويتصف كتاب الباقلاني وأسلوبه بالتماسك، حتى إنك لا تحس بطوله، ومما يلحظ عليه كثرة تقسيماته، والتكرار في بعض أبوابه، ولمذهبه أثر كبير في كتابه، وفي عرضه للاستشهاد يتصف كتاب الباقلاني بالتنوع بين الآيات القرآنيه، والأحاديث النبوية، وأقوال العرب وأشعارهم، وفي نقله ممن سبقه نجد أن الباقلاني يكثر من ذكر " ذهب أصحابنا " ويقصد بهم الأشاعرة، وهو في نقله يشير إلى من سبقه، ولكنه في باب " أقسام البلاغة العشرة " التي ذكرها لم يشر إلى من نقل عنه أقصد: الرماني، والذي يظهر أن سبب ذلك اختلاف المذهبين بينهما.

الأشياء التي اتفقا فيها :

١- السبب الذي ألفا كتابيهما من أجله هو سؤال سائل.

٢- اتفقا على أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه خارج عن

المعهود وجميع كلامهم، فالقرآن جاء بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة.

٣-عقد الرماني والباقلاني فصولا في نفي الشعر والسجع من القرآن؛ لأنه من كلام العرب ومن أساليبهم، وقد تميز الباقلاني عن الرماني في إطالة الحديث هنا، وإيراده أمثله وشواهد كثيرة.

٤- اتفق الرماني والباقلاني في أن الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية أحد وجوه الإعجاز عندهما، وكذلك في ذكر أقسام البلاغة العشرة، حيث أفاد الباقلاني من الرماني دون الإشارة إليه.

كتابا: (فحول الشعراء)، و(طبقات فحول الشعراء)

كتاب (فحول الشعراء) للأصمعي .

كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام .

فحول الشعراء

للأصمعي

المؤلف

هو الإمام أبو سعيد عبد الملك بن قريب، المولود سنة اثنتين وعشرين ومائة من الهجرة، والمتوفَّى سنة ست عشرة ومائتين، ينتهي نسبه إلى مضر. كان راويةً للغة والأدب، ذَوّاقة للشعر، وكان إمامًا في الأخبار والنوادر، والمُلَح والغرائب، وكان كثيرَ الحفظ حتى قيل: إنه كان يحفظ ستةَ عشر ألف أرجوزة، وإنه لم يكن يدعي شيئًا من العلوم إلا وله به معرفة تامة، وكان حسن العبارة والرواية.

وهو من أهل البصرة، قَدِمَ بغداد في أيام الرشيد، وكان المأمون يُجِلّهُ، وكان طلبه أن يأتي إليه فلم يفعل واحتجَّ بكبرِهِ وضعفه، فكان المأمون يجمع المُشْكَل من المسائل ويرسل به إليه؛ ليجيب عنه، وكانت وفاته بالبصرة.

أما نسبته، فينسب إلى جدِّه أصمع، وهو من قيس، وقد تأدب الأصمعي على علماء البصرة وأئمتها، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر، وكان امْتَازَ بطلاوة الأسلوب، وجمال الحديث، وحلاوة التعبير حتى قال الشافعي فيه: "ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي"، كما أثنى عليه أحمد بن حنبل وغيره، ووصف بالصدق، ووصفه أبو نواس بأنه بلبل يطرب الناس بنغماتِهِ، مقارنة بأبي عبيدة حيث تتلمذ أبو نواس على أبي

عبيدة، فسئل عنهما فقال عن الأصمعي ما ذكرنا، وقال عن أبي عبيدة أستاذه بأنه يقرأ على الناس أخبار الأولين والآخرين.

وكان الأصمعي يفضل خلفًا الأحمر، المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائة، وخلف كما هو معروف راوية أديبٌ ناقدٌ مشهورٌ، وقد تتلمذ على الأصمعي أيضًا إسحاق الموصلي، وكان يعظمه ويأخذ عنه، كما تتلمذ عليه جمهور كثيرٌ من الرواة، وفي مقدمتهم ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله، وكذا أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو حاتم السجستاني، وأحمد بن محمد اليزيدي، وغيرهم. أما الأصمعي نفسه فقد تتلمذ على أشياخ عصره؛ من أمثال: حماد بن سلمة، وحماد بن زيد، والخليل بن أحمد.

مؤلفاته:

له مؤلفات كثيرة، طُبِعَ منها: (النخل والكَرْم) و(النبات والشجر) و(الفرق)، و(الدارات) و(الشاء) و(الخيل)، و(خلق الإنسان) و(الإبل)، و(أسماء الوحوش) و(الأصمعيات) التي هي مختارات من الشعر الجيد الذي تذوقه؛ علاوة عن الكتب الأخرى التي لا تزال مفقودة أو مخطوطة.

ثانيًا: التعريف بالكتاب:

كتاب (فحولة الشعراء) من بين كتبه، وتفصيلُ القول فيه فيما يلي:

لقد ظهر كتاب (فحول الشعراء) بتحقيق الشيخين محمد عبد المنعم خفاجي، وطه محمد الزيني، في القاهرة سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، وقد اعتمد المحققان على نسختين خطيتين له، تحدثا عنهما في منهج تحقيقهما للكتاب. والكتاب برواية الإمام الجليل الراوية أبي حاتم السجستاني، العالم اللغوي الثقة، الذي هو من أهل البصرة أيضًا، ويوصف بصدق روايته، وقد توفي سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة.

ثالثًا: منهج الكتاب وقيمته:

روى أبو حاتم هذا الكتاب عن الإمام الأصمعي، وطريقه فيه طريقة الحوار والمساءلة، فيسأل أبو حاتم الأصمعيَّ عن أحد الشعراء؛ هل هو فحل أم لا، أو هل هو من الفحول؟ فيجيبه الأصمعي ويرشده إلى ما يرى، مستدلًّا على رأيه ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد، أو أبيات جيدة تسلكه في عداد الفحول، وينبه على الشاعر الذي لم يبلغ منزلة الفحول مبيناً تقصيره، وحاجته إلى الزيادة على ما قال حتى يصير فحلًا.

وفي بعض الأحيان يتهكَّمُ الأصمعي على بعض الشعراء تهكمًا لاذعًا، كما فعل مع زهير الشاعر الجاهلي المشهور، الذي قال فيه: "إنه لا يصلح أن يكون أجيرًا للنابغة"، وقد يبالغ الأصمعي في تقدير ما يعجبه من آثارٍ أدبيةٍ شعريةٍ؛ فيرفع الشاعرَ أو الشعر إلى أعلى منزلة، ويقول: "ليس في الدنيا مثل هذا البيت"، أو "ليس في الدنيا مثل هذه القصيدة". معنى هذا: أن الأصمعي لم يؤلف الكتاب ولم يملِهِ، وإنما جاء الكتاب جمعًا لتساؤلات وجهها أبو حاتم السجستاني إلى شيخه ودوَّنَهَا.

إن موضوع الكتاب هو (فحولة الشعراء) أو فحولهم، ويجمع الفحل على فحول وفحولة، وفحول الشعراء هم الذين غلبوا على من هجاهم، مثل: جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعراً فغلب عليه مثل علقمة، كان يسمى فحلًا؛ لأنه عارض امرأ القيس في قصيدته البائية المشهورة، التي يقول فيها:

خَلِيليَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ ....

ويطلق الفحول أيضًا على الرواة.

ويريد الأصمعي بالفحل من كان له مَزِيَّةٌ عَلَى غيره من الشعراء كمزية الفحل على سواه، وهذا الكتاب يُعَدُّ أقدمَ كتابٍ أُلِّفَ في النقد ودراسة الشعراء في مطلع العصر العباسي، ويعود بنا مصطلح الفحولة إلى طريقة الخليل بن أحمد في انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية؛ فالفحل جملًا كان أو فرساً يتميز بما يناقض صفة اللين التي يكرهها الأصمعي في الشاعر، وبالفحولة يتفوق على ما عداه.

فقد سأل أبو حاتم الأصمعيَّ عن معنى الفحل؟ فقال له: "ما له مزية على غيره، كمزية الفحل على الحِقَاق". الحقاق: جمع حِقّ وهو الذي استكمل ثلاث سنوات ودخل في الرابعة؛ لهذا انقسم الشعراء لدى الأصمعي إلى فئتين: فحول وغير فحول.

قال أبو حاتم: "سألت الأصمعي عن الأعشى؛ أفحل هو؟ قال: لا، ليس بفحل"، وقال: "سألت الأصمعي عن مهلهل؟ قال: ليس بفحل، ولو قال مثل قوله:

أَلَيْلَتَا بِذِي حُسُمٍ أَنِيرِي ....

خمس قصائد؛ لكان أفحلهم".

وقال: "سألت الأصمعي عن عمرو بن كلثوم؛ أفحل هو؟ فقال: ليس بفحل، قلت: فأبو زبير؟ قال: ليس بفحل، قلت: فعروة بن الورد؟ قال: شاعر كريم وليس بفحل، قلت: فالحويدرة؟ قال: لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته –أي العينية– كان فحلًا، قلت: فحميد بن ثور؟ قال: ليس بفحل، قلت: فابن مقبل؟ قال: ليس بفحل، قلت: فابن أحمر الباهلي؟ قال: ليس بفحل، قلت: فكعب بن جعيل؟ قال: أظنه من الفحول، ولا أستيقنه، قلت: فحاتم الطائي؟ قال: حاتم إنما يُعَدُّ فيمن يُكَرِّم، ولم يقل: إنه فحل في شعره، قلت: فمعقر البارقي حليف بني نمير؟ قال: لو أتمَّ خمسًا أو ستًّا لكان فحلًا، قلت: فكعب بن سعد الغنوي؟ قال: ليس من الفحول إلا في المرثية؛ فإنه ليس مثلها في الدنيا.

وسألته عن خُفاف بن ندبة، وعنترة، والزبرقان بن بدر؟ فقال: هؤلاء أشعر الفرسان، ولم يقل: إنهم فحول، قلت: فالأسود النهشلي؟ قال: يشبه الفحول، قلت: فأوس بن مغْرَاء؟ قال: لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول، ولكنه قُطِعَ به، قلت: فكعب بن زهير؟ قال: ليس بفحل، قلت: فزيد الخيل الطائي؟ قال: هو من الفرسان..." إلى آخره، فهذا الحوار نقله أيضًا المرزباني في (الموشح).

ويرشدنا هذا الحوار إلى طريقة السجستاني حين سأل شيخه الأصمعي عن الشعراء، وقد سجل السجستاني هذه الحوارات عن الأصمعي سنة اثنتين وتسعين ومائة من الهجرة، وكان الأصمعي في سِنِّ الخامسة والسبعين؛ لذلك يعد الكتاب من الآثار النقدية الخالدة؛ حيث يتقدم على ابن سلام في كتابه (طبقات الشعراء) الذي ألفه نحو عام سبعة عشر ومائتين من الهجرة؛ لذا يعد كتاب الأصمعي أقدم المصادرِ العربيةِ المعروفةِ في النقد، ودراسة الشعراء.

فلم يترك شاعرًا جاهليًّا أو مخضرمًا أو إسلاميًّا مشهورًا، إلا أبدى رأيه فيه في صراحةٍ وعدالةٍ أدبيةٍ بعيدةٍ عن كل المؤثرات؛ مما يعطي الكتاب قيمة كبيرةً فوق قيمتِهِ، وأحكام الأصمعي جاءت في الكتاب مميزة بالجرأة والشجاعة النادرة؛ فالأعشى الشاعر الجاهلي المشهور ليس من فحول الشعراء، وكذلك عمرو بن كلثوم، وعدي بن زيد، والمهلهل، ولبيد، وهم من أعلام الشعر الجاهلي، ولم يحتج بشعر عمر بن أبي ربيعة، وابن قيس الرقيات؛ لأنهما من المولدين.

أما زعامة الشعر الجاهلي، فيضعها الأصمعي في يدي النابغة وامرئ القيس؛ مما يدل أنه كان متعصبًا للشعر الجاهلي والجاهليين، وأما جرير والفرزدق والأخطل فقال عنهم: "إن هؤلاء لو كانوا في الجاهلية؛ كان لهم شأن".

والكتاب على ضآلته، وقلة عدد أوراقه له قيمة كبيرة؛ ومما يزيد في قيمته أن مؤلفه كان من أعظمِ الخبرَاءِ بالأدب العربي؛ ولا سيما فَنّ الشعر الذي كان أقدرهم على حفظه

وروايته، وعنه حُفِظَ الكثير من هذا الشعر حتى دُوِّنَ في الكتب والدواوين، فكان لا يتخير إلا ما حسن وجاد.

وقد سأله الرشيد عن نفسه؛ أشاعرٌ أم راوية؟ قال: "راوية، قال: لمن؟ قال: لذي جدّ وهزل بعد أن يكون محسناً. قال له الرشيد: والله ما رأيت أدعى لعلمٍ، ولا أخبر بمحاسن بيانٍ فاتقته الأذهان، منك".

وآراؤه النقدية تتسم بالبساطة في عبارتها، وتميل إلى الإيجاز والميل إلى التعميم في الأحكام دون بيانِ علَّةٍ في الغالب، وهذا الأسلوب أدى إلى إحصاءِ عددٍ كبير من شعراء الجاهلية والإسلام في هذا الكتاب الصغير.

وأثر الارتجال بادٍ في آراء الأصمعي في كتابه، من ذلك قول أبي حاتم السجستاني: "سألت الأصمعي غير مرة يفضل النابغة الذبياني على سائر الشعراء في الجاهلية، وسألته قبل موته: من أول الفحول؟ قال: النابغة الذبياني، ثم قال: ما أرى في الدنيا لأحد مثل قول امرئِ القيس:

وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ ببَنِي أَبِيهِمْ وبالأَشقَيْنَ مَا كَانَ العِقَابُ

الجد: هو الحظ، وبنو أبيهم: هم بنو كنانة؛ حيث كانت أسد وكنانة ابنا خزيمة أخوين. وقوله: الأشقين جمع الأشقى، وهو الشقي السيئ الحظ. ومعنى البيت: أنه لم يقع العقاب ببني أسد وهم المقصودون به، بل وقع لسيئ الحظ من أبناء عمومتهم، وهم بنو كنانة.

قال أبو حاتم: لما رآني الأصمعي أكتب كلامه فكَّر، ثم قال: بل أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس؛ له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله، واتبعوا مذهبه". لقد بدَّل الأصمعي رأيه في النابغة؛ إذ رأى أبا حاتم يكتب عنه ما يقول ليحفظه ويرويه للناس، وربما كان تقديم النابغة ووصفه بأنه أول الفحول كان رأي الأصمعي، ولكنه آثَرَ أن يكون رأيه المكتوب هو الرأي المأثور الذي يعرفه العلماء؛ حتى لا يخرج على هذا المعروف.

وقد تتعدد الآراء فيضطرب رأي الأصمعي بين تلك الآراء المضطربة؛ فإن أبا حاتم يذكر أن رجلًا سأل الأصمعي: أيُّ الناس طُرًّا أشعر؟ قال: "النابغة، قال: تُقَدِّم عليه أحداً؟ قال: لا، ولا أدركت العلماء بالشعر يفضلون عليه أحداً، وَسُئِلَ عن زهير، فقال: اختلف فيه وفيهما، أي: في امرئ القيس والنابغة، ثم قال: لا، أي: ليس هو بأشعر الناس، وقال له رجل: النابغة أشعر أم زهير؟ فقال: ما يصلح زهير أن يكون أجيراً للنابغة".

إن الارتجال في تلك الآراء التي ذكرت في فحولة الشعراء، كانت سبباً في وقوع الأصمعي في كثيرٍ من التناقض، فبعدما كان يفضل امرأ القيس نراه يفضل طفيلًا الغنوي، فيقول: "وطفيل عندي أشعر من امرئ القيس، وقد أخذ طفيل من امرئ القيس شيئًا، ويقال: إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه".

والمتأمل في (فحولة الشعراء) يرى أن الأصمعي قد هداه بصرُهُ النافذ، إلى مواقف نقديةٍ واضحةٍ بان بعضها مما ذكرنا، ونجمل عدداً من هذه المواقف النقدية المهمة فيما يلي:

أولًا: لكي يكون الشاعر فحلًا، ينبغي أن يتميز بالإجادَةِ التامة والكمال، والعبقرية الفنية في شعره كله؛ بحيث يصبح الشاعر مثلًا أعلى فيما تتفتق عنه عبقريته من إجادةٍ في التشابيه، أو التراكيب، أو الأساليب البلاغية الأخرى؛ لذلك نراه يقول: "أولهم كلهم في الجودة امرؤ القيس؛ له الحظوة والسبق، وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا مذاهبه".

ثانيًا: من مقاييس فحولة الشعراء عند الأصمعي: تنوع النتاج، وهو مقياس شاع في مدرسة الكوفة، وأخذه وتأثر به الأصمعي حيث قال: "إن أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحدًا"، قال: "وكان خلف لا يقدم عليه أحدًا"، قال أبو حاتم: "لأنه قال في كل عروض، وركب كل قافية"؛ فتعدد بحور الشاعر، وتعدد قوافيه كذلك من أسباب تفضيله وتقديمه.

ثالثًا: من عناصر مقياس فحولة الشعراء: وفرة نتاج الشاعر، وقد اقتبسه منه ابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، ومن الأمثلة التي تؤيد هذا المقياس: "قلت –أي السجستاني للأصمعي: فالحويدرة؟ قال: لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلًا. وقال عن أعشى همدان: هو من الفحول، وهو إسلامي كثير الشعر". والمتصفح للكتاب يرى أنه ليس هناك من قاعدة لعدد القصائد، فهو يطالب بعض الشعراء بخمس، ويطالب آخرين بعشرين قصيدة كما طالب أوسًا الهجيمي، كما نراه يطالب آخرين بزيادة قليلة.

رابعًا: من عناصر مقياس الفحولة: الأخلاق الحميدة؛ فالشاعر الذي يكثر من هجاء الناس غير الشاعر الذي يكثر من مدحهم، ومما يؤيد هذا قول أبي حاتم: "قلت: فمزرد، وهو لقب أخي الشماخ؟ قال: ليس بدون الشماخ، ولكنه أفسد شعره بما يهجو به الناس".

خامسًا: من عناصر مقياس الفحولة: العقيدة الدينية أو المذهبية، فلقد تسامح الأصمعي مع الشعراء الوثنيين شأنه في ذلك شأن الرواة؛ لكونهم عماد التراث العربي، والذين عنهم أُخذت اللغة، ولم يأخذوا في كثيرٍ من الجد دين الشعراء من المسيحيين أو اليهود عند إصدار الحكم.

ولكننا نرى الأصمعي وقف من العقائد الإسلامية موقفًا خاصًّا، شأنه في ذلك شأن النقاد كافة، إذا ما كان الشاعر وعقيدته ضد الوضع القائم آنذاك، فلقد سلب الفحولة عن السيد الحميري؛ بسبب عقيدته، حيث قال عنه: "قبحه الله، ما أسلكه بطريقِ الفحولِ لولا مذهبه"، ومرة أخرى قال: "قاتله الله، ما أطبعه وأسلكه لسبيل الشعراء، والله لولا ما في شعره من سبِّ السلف لما تقدمه من طبقته أحد".

وقد أُخِذَ على الأصمعي: أنه تحامل على الشعراء الذين ينتسبون إلى عقيدةٍ معينةٍ، حيث رفض شعر بعضهم؛ بسبب موقفِهِ الديني التقليدي، لا بسبب قدرة الشاعر الفنية، وبسبب مقاربته للسلطة، ومجاراته لها في العهدين الأموي والعباسي، فقد رأى أن الكميت بن يزيد ليس بحجة ورآه مولدًا، وكذا حكمه على الطرماح، مع أنه رأى أن ذا الرمة حجة لبدويته، ومع ذلك رأى أن شعره لا يشبه شعر العرب.

المبحث وقد رأى بعض الدارسين أن عداء الأصمعي للكميت، يعود إلى أن الكميت مدح العلويين الذين كانوا يطالبون بالسلطان، والذي تسبب حكمهم في الكوفة بقطع يدِ جَدِّه؛ ولذلك لا يرى الأصمعي يشير من قريبٍ أو بعيد إلى الهاشميات، وكان يتجنب تفسير القرآن؛ خشية أن يقع على ما فيه من تفضيل لبيت الرسول صلى الله عليه وسلم، هكذا رأى بعض من نظر في الأصمعي وكتابه.

طبقات فحول الشعراء

لابن سلام الجمحي

المؤلف

هو أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي البصري، مولى قدامة بن مظعون الجمحي، وُلِدَ بالبصرة في سنة تسع وثلاثين ومائة، وتوفي ببغداد سنة إحدى وثلاثين ومائتين أو سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وقد ابيضَّتْ لحيته ورأسه ولَهُ سبْع وعشرون سنة، وعمَّر نحوًا من ثلاث وتسعين سنة.

سمع شيوخ العلم والحديث والأدب، كما سمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب أيضًا، فقد عاصر كثيرًا من علماء اللغة ونُحاتِهَا ورواة أدبها وأخبارها ممن عاشوا في القرن الثاني الهجري، في تلك البيئة التي اشتهرت بالمحققين من العلماء في صنوفِ الثقافة العربية، وتصفه كتب التراجم بأنه أحد الأخباريين والرواة، وبأنه كان من أهل الأدب، وتصفه بعلمِهِ الواسعِ بالشعر والأخبار، وقد عدَّهُ الكاتبون في طبقات النحاة واللغويين في الطبقة الخامسة بين علماء البصرة.

أما شيوخه في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، فقد ذكر محقق الكتاب وهو الشيخ محمود محمد شاكر –رحمه الله– عددًا كبيرًا، منهم: الأصمعي، وبشار بن برد، وخلف

الأحمر، وأبو زيد الأنصاري، وسيبويه، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وقد عدَّهُم المحقق ورأى أن عدتهم تسعة وسبعون شيخًا، روى عنهم ابن سلام في كتابه؛ منهم أبوه سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي.

فقد كان ابن سلام من أهل بيت لهم في العلم باع، منهم أبوه وأخوه عبد الرحمن بن سلام الجمحي أحد رواة الحديث، روى عنه مسلم وأبو زرعة وأبو حاتم وغيرهم، وقد روى عن ابن سلام نفرٌ من العلماء منهم: ثعلب، وأبو حاتم، والمازني، وأحمد بن حنبل، وابنه عبد الله بن أحمد، وغيرهم من الأئمة.

ثانيًا: التعريف بالكتاب:

ترك ابنُ سَلَّام عدَّةَ كُتب تدلُّ على تنوع معارفه، منها: كتاب (غريب القرآن) وكتاب (بيوتات العرب) وكتاب (طبقات فحول الشعراء)، وهناك قول بأن له في الطبقات كتابين؛ للشعراء الجاهليين كتاب، وللشعراء الإسلاميين كتاب آخر. وقد نُشِرَ الكتاب بشرح وتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، الذي تصرف في الاسم المعروف للكتاب (طبقات الشعراء) فجعله (طبقات فحول الشعراء) وهو بهذا قد قدم عملًا نافعًا، وأسدى إلى الباحثين يدًا بما جمع من أقوال رواها المرزباني في (الموشح) عن إبراهيم بن شهاب عن أبي خليفة عن ابن سلام، وقد تمم بهذه الأخبار وغيرها نقصًا رآه في الكتاب، أو صحح بها خطأ.

ثالثًا: منهج الكتاب وقيمته:

أما منهج ابن سلام في (الطبقات) فيبرز في أنه تكلم في الشعراء، وأراد أن يُنـــزلهم منازلهم ويصنفهم إلى طبقات، وقد انتهج لتحقيق هذه الغاية ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الفحص عن الأشعار المنسوبة إليهم؛ للتأكد من صحة نسبتها إليهم.

الأمر الثاني: النظر في التراث الذي خلفه الشعراء نظرةً عميقةً، تمكن من الحكم عليـــه؛ لمعرفة نواحي الإجادة ومواضع التقصير.

الأمر الثالث: الإفادة في أحكامه من آراء السابقين؛ حيث استعان ابن سلام فـــي أحكامـــه برواية أقوال من مضى من أهل العلم في الشعراء، وأفاد من آرائهم في تقديم شاعر على غيره أو تحديد طبقته.

وقد سلك في النظر إلى الشعراء طرقًا مختلفة، منها: الطريقة التاريخية حيث قســم الشعراء؛ بحسب أزمانهم إلى جاهليين ومخضرمين وإسلاميين، كما نظـــر فـــي بيئـــاتهم وأثرها في شعرهم؛ فخصص فصلًا لشعراء القرى العربية، وشعراء المدينـــة، وشـــعراء مكة، وشعراء الطائف، وشعراء يهود المدينة.

كما نظر إلى الشعراء من ناحية فنون شعرهم وأبوابه، واقتصر على المجودين فـــي المراثي دون غيرهم من الذين عالجوا سائر الأغراض؛ لكون شعر الرثاء أغزر ألـــوان الشعر المميزة بالعاطفة الصادقة، والملونة بالحسرة واللوعة؛ لذلك جاءت الجهود النقديـــة

لابن سلام مبنية على منهج علمي في محاولتِهِ تصنيف الشعراء، حيث نجد كتابًا وافيًا للشعر العربي يسلك صاحبه المنهج العلمي.

ولا شك أن محاولة تقسيم الأدباء والشعراء إلى مجموعاتٍ وطوائفَ بحسب تفاوتهم في كثرة النتاج، أو في جودته، أو في قدرتهم على التصرف في فنون الشعر -تُعَدُّ من فنون الدراسات النقدية، فقد جعل الجاهليين من الشعراء عشر طبقات، وجعل في كل طبقة أربعة شعراء.

الطبقة الأولى: امرؤ القيس، ونابغة بني ذبيان، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى ميمون بن قيس.

الطبقة الثانية: أوس بن حجر، وبشر بن أبي خازم، وكعب بن زهير، والحطيئة.

الطبقة الثالثة: النابغة الجعدي، وأبو ذؤيب الهذلي، والشماخ بن ضرار، ولبيد بن ربيعة.

الطبقة الرابعة: طرفة بن العبد، وابن الأبرص، وعلقمة، وعدي بن زيد.

الطبقة الخامسة: خداش بن زهير، والأسود، والمخبل السعدي، وتميم بن أبي نويرة.

الطبقة السادسة: عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وعنترة بن شداد، وسويد بن أبي كهل.

الطبقة السابعة: سلامة بن جندل، والحصين بن الحمام، والمتلمس، والمسيب بن علس.

الطبقة الثامنة: عمرو بن قميئة، والنمر بن تولب، وأوس الهجيمي، وعوف بن عطية.

الطبقة التاسعة: ضابئُ البرجمي، وسويد بن قراع، والحويدر الذبياني، وسحيم عبد بني الحسحاس.

الطبقة العاشرة: أمية بن حرثان، وحريث بن محفظ، والكميت بن معروف، وعمرو بن شأس.

ثم عقب هؤلاء بطبقة أصحاب المراثي، وهم: متمم بن نويرة والخنساء، وأعشى باهلة، وكعب بن سعد الغنوي، ثم بشعراء القُرَى العربية وهن خمسٌ: المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين، وشعراء المدينة الفحول خمسة: ثلاثة من الخزرج، واثنان من الأوس، فمن الخزرج من بني النجار حسان بن ثابت، ومن بني سلمة كعب بن مالك، ومن بلحارث بن الخزرج عبد الله بن رواحة، ومن الأوس قيس بن الخطيم من بني زفر، وأبو القيس بن الأسلت من بني عمرو بن عوف.

وبمكة شعراء وأورعهم شعرًا عبد الله بن الزبعرى، وفيهم شعراء هم: أبو طالب بن عبد المطلب، والزبير بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية، وضرار بن الخطاب، وأبو عزة الجمحي، وعبد الله بن حذافة، وهبير بن أبي وهب. وشعراء الطائف: أبو الصلت بن أبي ربيعة، وابنه أمية بن أبي الصلت وهو أشعرهم، وأبو محجن الثقفي، وغيلان بن سلمة، وكنانة بن عبد يعيش.

أما اليمامة؛ فإن ابن سلام يقرر أنه لا يعرف بها شاعرًا مشهورًا، قال ابن سلام: "وفي البحرين شعر كثير وفصاحة، ومن شعرائها: المثقب العبدي، والممزق العبدي، والمفضل بن معشر".

وفي يهود المدينة وأكنافها شعر جيد، ومن شعرائها: السموءل بن عادياء، والربيع بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض، وأبو قيس بن رفاعة، وأبو الزيال، ودرهم بن زيد.

أما الشعراء الإسلاميون فقد جعلهم كالجاهليين عشر طبقات أيضًا، وفي كل طبقة أربعة شعراء:

الطبقة الأولى: الفرزدق، وجرير، والأخطل، والراعي.

الطبقة الثانية: البعيث المجاشعي، والقطامي، وكثير عزة، وذو الرمة.

الطبقة الثالثة: كعب بن جعيل، وعمرو بن أحمر الباهلي، وسحيم بن وثيل الرياحي، وأوس بن مغراء القريعي.

الطبقة الرابعة: نهشل بن حريّ الدارمي، وحميد بن ثور الهلالي، والأشهب بن رميلة، وعمر بن لجأ التيم.

الطبقة الخامسة: أبو زبيد الطائي، والعجير بن عبد الله السلولي، وعبد الله بن همام السلولي، ونفيع بن لقيط الأسدي.

الطبقة السادسة: حجازيون: ابن قيس الرقيات، والأحوص الأنصاري، وجميل، ونصيب.

الطبقة السابعة: المتوكل الليثي، ويزيد بن ربيعة، وزياد الأعجم، وعدي بن الرقاع.

الطبقة الثامنة: عقيل بن علفة المري، وبشامة بن الغدير، وشبيب بن البرصاء، وقراد بن حنش.

الطبقة التاسعة: رجاز: الأغلب العجلي، وأبو النجم العجلي، والعجاج بن رؤبة، ورؤبة بن العجاج.

الطبقة العاشرة: تضم مزاحم بن الحارث العقيلي، ويزيد بن الطثرية، وأبا دؤاد الرؤاسي، والقحيف بن سليم العقيلي.

ونُجمل آراء ابن سلام النقدية فنقول: لقد رأى أن الشعر ونقده صناعة، وأن له ثقافة لا يعرفها إلا أهلُ العلم به كسائر أصناف العلوم والصناعة، كما لا يغفل أثر الذوق في تقدير القيم الفنية والإحساس بالجمال، ولنا أن نقرأ مقدمة كتابه؛ لنرى قوله: "وللشعر صناعة، وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان.

من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة، ولا وزنٍ دون المعاينة ممن يبصره، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز، ولا وسم ولا صفة، ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها وزائفها، وستوقها ومفرغها –الستوق:

إذا كان من ثلاث طبقات يرد ويطرح، والمفرغ: المصمت المصبوب في قالب ليس بمضروب- ومنه البصر بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه، واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسه وزرعه، حتى يضاف كل صنف إلى بلده الذي خرج منه.

وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظريفة اللسان، واردة الشعر؛ فتكون في هذه الصفة بمائة دينار وبمائتي دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر، ولا يجد واصفها مزيدًا على هذه الصفة، وتوصف الدابة فيقال: خفيف العنان، لين الظهر، شديد الحافر، فتي السن، نقي من العيوب؛ فيكون بخمسين دينارًا أو نحوها، وتكون أخرى بمائتي دينار وأكثر، وتكون هذه صفتها" إلى آخره.

كما بحث ابن سلام بحثًا عميقًا في الشعر الصحيح والشعر المصنوع، فأوجب على الناقد أن ينظر في النص الأدبي قبل أن ينقده، وقبل أن يحكم على الأديب بأن يتأكد من صحةِ نسبةِ الشعرِ إلى قائله؛ حتى لا يحكم على الشاعر بشعر غيره، الذي حمل عليه الصناع والمتزيدون.

ومن أمثلة ما نبه عليه من ذلك: أن الذي صح لطرفة، وعبيد بن الأبرص نحو عشر قصائد، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة، وإن كان ما يروى من الغثاء لهما؛ فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة.

ولم يفُت ابن سلام أن ينبه إلى بعض أسباب وضع الشعر وانتحاله، فذكر منهـــا: أن العرب لما راجعت رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها اســـتقل بعـــض العشـــائر شـــعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم وأشـــعارهم، فـــأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فـــزادوا في الأشعار.

ثم ذكر طائفة من الرواة المحققين الذين عُرِفُوا بالصدق، وفي طليعتهم –في نظـــره– يونس بن حبيب، والأصمعي، وأبو عمرو بن العلاء، وخلف الأحمر؛ كما ذكر طائفة من الوُضَّاع منهم: محمد بن إسحاق، وحماد الراوية.

وهكذا نرى أن ابن سلام طرق عدة مسائل نقدية؛ فقد ربط النقد بخبرة الناقد وذوقه، ورأى الحاجة ملحة إلى تحقيق النصوص، حيث رأى أن بعض الشعراء قد نســـب إلـــيهم شعر لم يقولوه؛ لعوامل أرجعها إلى الرواة، والتدوين الذي حدث من القصاص، وأيضًـــا أرجع بعضها إلى ضياع كثير من الشعر، وانصراف الناس إلى الجهاد، كما أرجع بعضها إلى أن بعض القبائل قد استقلت شعراءهم؛ مما دعا إلى التزيد في الأشعار؛ لهذا تميـــزت آراء ابن سلام بذوق وإحساس مرهفين حيث استطاع أن يميز الشعر المنحول في العصر الجاهلي، كما كان ذا ذوقٍ رائعٍ ميّز به نسبة الشعر إلى بعض الشعراء دون بعض.

ومن هذا قوله: "كان قراد بن حنش المُرِّي قليلَ الشعر، وكان شعراءُ غطْفان تُغِيـــرُ على شعرِهِ وتدَّعِيه، كما ادَّعى زهيرُ بن أبي سُلْمَى لنفسه:

إنَّ الرزيةَ لَا رَزيةَ مِثْلُهَا مَا تبتغِي غَطْفَانُ يَوْمَ أضلَّتِ

وهو لقراد بن حنش".

كما كان ابن سلام ذا ذوق ميز به خصائص الشعراء، كما ذكر في خصيصة شعر المهلهل بن ربيعة، قالوا: وإنما سمي المهلهل؛ لهلهلة شعره، أي: اضطرابه واختلافه، وقال: "زعمت العرب أن المهلهل كان يدعي في شعره، ويتكثر في قوله بأكثر من فعلِهِ". كما كان ذا ذوقٍ ميز به رديء الشعر، الذي عابه من قول كثير في مدح عبد العزيز بن مروان:

وما زالَتْ رُقَاك تَسُلُّ ضِغْنِي وتُخْرِجُ مِنْ مضابِئِهَا ضِبَابِي
وَيَرْقِينِي لَكَ الرَّاقُونَ حتَّى أَجَابَكَ حيّةٌ تَحْتَ الثِّيَابِ

قوله في البيت الأول: تسل ضِغْنِي، أي: تسترضيه، وقوله: "وتخرج من مضابئها ضبابي"، أي: تنتزع الحقد الشديد، والمضابئ: جمع مضبأ وهو المخبأ، والضباب جمع ضب وهو الحيوان الزاحف المعروف، والمراد: الحقد والغيظ الكامن في الصدر.

فقد زعم كثير أن عبد العزيز ترضاه –أي: طلب رضاه– واحتال له ورقاه حتى أجابه مادحًا، وهذه أمثلة دللنا بها على ذوق ابن سلام الأدبي نظرًا وتطبيقًا، وهو المبدأ نفسه الذي جرى عليه الباحثون والناقدون فيما بعده قرونًا طويلة.

حتى رأينا في العصر الحديث من يعتمد الذوق في النقد الأدبي، ويعتمد له أصولًا تمكنه من القدرة على الحكم والتمييز؛ لذا يظل كتاب ابن سلام من أهم ما كتب في النقد

الأدبي عند العرب، ويظل ابن سلام من أجلَّاءِ النقَّادِ صحةَ ذهنٍ، ونفاذَ بصر، بما بسط من القول وأوضح من الدلائل وبَيَّنَ من العلل؛ ففي كتابه صورة لحياة النقد منذ نشأ في الجاهلية إلى أوائل القرن الثالث، وصورةٌ للأذواق المختلفة والأذهان التي خاضت فيه.

ولقد كانت الأفكار في النقد مبعثرة لا يربطها رابط؛ حتى جاء ابن سلام فضم أشتاتها، وألف بين المتشابه منها بروح علمية قوية، وقد حوى كثيرًا من آراء الأدباء واللغويين التي انتفع بها فيما بعد من كتبوا في النقد الأدبي، أو في سير الشعراء؛ كالآمدي صاحب (الموازنة بين الطائيين)، وأبي الفرج الأصفهاني صاحب كتاب (الأغاني).

لقد نال ابن سلام تقدير الأدباء والعلماء، فقد احترموا آراءه؛ لأنه صدر فيها عن منهج علمي، مستعينًا بخبرته وذوقه في نقاداته، متبعًا المنهج العلمي، ويكفي أنه صنف الشعراء في طبقات بناء على أسس قوية، على رأسها التجويد الفني الذي قام على معايير، منها: سهولة المنطق، ورقة الكلام، وكثرة الشعر، وتنوع الأغراض، ووجود البواعث التي تحرك على قول الشعر كالحروب والغارات، وكالتميز بفنٍّ قولي كأصحاب المراثي؛ أمدتهم مواجعهم بأسباب التجويد كالخنساء ومتمم بن نويرة.

هذا بالإضافة إلى أساسي الزمان والمكان، فقد قسَّمَ في ضوء الزمان شعراء كتابه إلى مجموعتين: جاهلية وإسلامية، والمخضرمون عنده ينتمون إلى إحدى المجموعتين؛ بحسب تراث كل منهم، وعلى أساس المكان رأى أصالة الشعراء من أهل البادية.

ولما ضاق تصنيفه عن استيعابهم خص شعراء القرى وهي الحواضر بباب خاص، فكان لكل قرية شعراؤها الفحول يقدم بعضهم على بعض، ويقدم شعراء المدينة على شعراء مكة، ويقدم شعراء المدينتين على شعراء الطائف واليمامة والبحرين، والمدينة عنده أشعر القرى؛ لما قام فيها من حروب بين الأوس والخزرج بخلاف مكة والطائف واليمامة والبحرين، وعد شعراء المدينة خمسة على رأسهم حسان بن ثابت، وشعراء مكة تسعة على رأسهم عبد الله بن الزبعرى، ثم وجد أن تقسيماته وتفريعاته ضاقت عن استيعاب شعراء اليهود فذكرهم في آخر كتابه؛ ليتم بهم الإحصاء، وليس لأن لهم خصائص تميزهم عمن سواهم.

ومع كل هذه الميزات التي رآها مَن نَظَر في كتابه؛ فقد أُخذ عليه أمور:

منها: أنه فتح باب القول في الانتحال واسعًا؛ مما ساعد بعض الباحثين المحدَثين في عصرنا الحديث على الجهر بالطعن في الشعر الجاهلي. ومنها: أنه لم يتحرَّ بعض الشعر الذي كان ينقله؛ من ذلك أنه نقل شعرًا منسوبًا إلى سعد ومالك ابني زيد مناة، وهو مدخول عليهما كدخول الشعر على عاد وثمود، ومنها: أنه أهمل ذكر طائفة صالحة من الشعراء، ليسوا أقل ممن ذكرهم، ومنهم: المرقشان الأكبر والأصغر، وتأبط شرًّا، والشنفرى، وعروة بن الورد، وحاتم الطائي، وليلى الأخيلية، والكميت بن زيد، والطرماح بن حكيم.

ويبدو أن كتابه المعنون بـــ(الطبقات) قد نال شهرةً بين الناس فيمن أتى بعـــده مـــن العلماء والأدباء؛ فتخيره بعضهم علمًا على كتب له، وإن لم يكن في تلك الكتب مـــا فـــي كتاب ابن سلام من أمثال تلك الدراسة الخصبة والتصنيف المنهجي، أو محاولة التقديم أو التأخير على أساس الإجادة والتفضيل.

ومن أولئك المؤلفين: عبد الله بن المعتز الذي أَلَّفَ كتابًا يحمل العنوان نفسه (طبقات الشعراء)، وقد يخيل عندما يسمع السامع هذه التسمية أن ابن المعتز سلك سبيل ابن سلام أو عدل في منهجه أو زاد، في حين أنه لم يزد فيه على ذكر عدد من الشعراء الذين اتصلوا بالخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس؛ من هنا يفقد كتاب ابن المعتز قيمته النقدية، ولا يجد له محلًّا بين الآثار الجديرة بالاعتبار.

الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي الجرجاني

الوساطة بين المتنبي وخصومه

للقاضي الجرجاني

المؤلف

القاضي الجرجاني هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل الجرجاني، ولد في جرجان ونسب إليها، وأقام فيها وتولى قضاءها، ودُفِنَ فيها، واختُلِفَ في مولده؛ فقيل: إنه في سنة تسعين ومائتين، أو اثنتين وعشرين وثلاثمائة. واختلف في وفاته أيضًا فقيل: إنه توفي سنة ست وستين وثلاثمائة، أو سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة.

ويذكر الثعالبي في (يتيمة الدهر): أن القاضي الجرجاني لما عمل الصاحب رسالته المعروفة في إظهار مساوئ المتنبي، عمل شيخنا كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) في شعرِه، ولا يستبعد أن يكون السبب المباشر لتأليف القاضي كتابه (الوساطة) رغبته في إنصاف المتنبي، من تحامل الصاحب ابن عباد عليه.

ومما يذكر: أن القاضي الجرجاني يعتبر في نظرِ كثيرٍ من العلماء، من المعتدلين بين فريقي المتعصبين للمتنبي، والمتعصبين عليه، ويشاركه في صفة الاعتدال هذه كلٌّ من يوسف البديعي في كتابه (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي) وابن وكيع في كتابه (المنصف في سرقات المتنبي) والثعالبي في كتابه (يتيمة الدهر).

ويمكن تقسيم كتاب (الوساطة) إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو بمثابة مقدمةٍ، يوضحُ فيها المؤلف منهجَهُ العام في النقد تمهيدًا للدفاع عن المتنبي، فيعرض لأخطاءِ الجاهليين حتى يلتمس لشاعره العذر فيما أخطأ فيه، ثم يتناول مشكلةَ تفاوت شعر الشعراء تبعًا لأزمنتهم وبيئتهم وموضوع شعرهم، بل وتفاوت شعر الشاعر الواحدِ، واختلاف هذا الشعر رداءةً وجودةً، وهنا يستعرض تاريخ الشعر العربي، وينتهي إلى ذكر البديع وأوجه البديع التي يفضلها بعد أن ظهر تفضيله للشعر المطبوع، وهو عنده شعر البحتري، وجرير، وذي الرمة، وغزّالي الحجاز.

القسم الثاني: هو دفاعٌ عن الشاعرِ، ودفاعه فيه قائمٌ على قياس الأشباه والنظائر، فإن كان المتنبي قد أخطأَ أو أحال أو سرق فقد فعل ذلك غيره، كما أن له إلى جانبِ ذلك الشعر الجيد المطبوع الأصيل.

القسم الثالث: هو الذي تصدق تسميته بالوساطَةِ؛ لأن الناقد يتناول فيه ما عيبَ على أبي الطيب في شعره، وما أخذه عليه العلماء من مآخذ، فيناقشه ويحلله ويفصل القولَ فيه، وهو نقدٌ موضوعيٌّ دقيق.

وحينمَا نلقي نظرةً على القسم الثاني من الكتاب، وهو القائم على الدفاع عن المتنبي؛ فإننا نرى القاضي يبدأ دفاعه بأن يحدِّدَ الخصوم، ويقسمهم قسمين:

القسم الأول: الذي لا يرى فضلًا إلا للمتقدمين؛ جاهليين وأمويين، وهم رافضون للشعر الحديث، ومن الطبيعي أن يهاجموا شعر المتنبي؛ لأنه لاحق بالمحدَثين.

القسم الثـــاني: هم الذين يسلمون بفضلِ أبي تمام وحزبِهِ، ومع ذلك يهـــاجمون المتنبـــي، وهؤلاء مغرضون من وجهة نظر القاضي، أفسد الهوى أحكامهم، وأتلف الحسدُ نظراتهِم، والقاضي يرى أن المتعصبين للقديم يسرفون في ذمِّ المحْدَثِين ويظلمونهم عندما يرفضون شعرهم بجملته، مع أن هؤلاء المحدَثين أجدر بأن يُتَرَفَّقَ في الحكم عليهم، وهذه الطائفة لا يريد القاضي أن يشغل نفسه بها ما دام ينظر بين المتنبي وأهل عصره، ولا يوازن بينـــه وبين القدماء.

أما الطائفة الأخرى فهي التي يحاجُّهَا الجرجاني بنوعٍ خاصٍ؛ إذ لا يرى وجهًا لمن يعجب بالمحدَثين ثم يحمل على المتنبي، ففيم يتحامل أنصار الحديث على المتنبي مـــع أن شعره من نوع الشعر الذي يروقهم، بل من أجوده؟! فهذا منهج الدفاع لا النقـــد، ومـــنهج قياس الأشباه والنظائر؛ فالجرجاني لا يميز للمتنبي خصائص، ولا يرد هجمـــات، وإنمـــا يسلِّمُ بما عيبَ لَهُ، ثم يلتمس لذلك العذر بأن يدعونا إلى المقاصَّةِ بين جيدِهِ ورديئه، ثم إلى قياسه بغيره من الشعراء، ولكلهم الجيد والرديء، بل منهم من يغلب رديئه جيـــده كـــابن الرومي وأبي نواس.

ونأخذ مثالًا تطبيقيًّا على هذا النهج، فقد بدأ بأبي نواس وأورد مـــا رآه جميلًـــا فـــي شعره، ثم أعقبه بالسخف منه والخطأ؛ سواء من ناحية اللغة، أو الأوزان حتى يصل إلـــى فسادِ عقيدتِهِ في الشرع، فيستشهد لذلك بأبيات واضحةِ الدلالةِ على الكفر كقوله:

أأتْرُكُ لذَّةَ الصهْبَاءِ نَقْدًا لمَا وَعَدُوهُ من لبنٍ وخَمْرِ

حياةٌ ثُمَّ موتٌ ثُم بَعْثٌ حديثُ خرافَةٍ يَا أُمَّ عَمْرو

ثم ذكر مما أخذ على المتنبي من نحو هذا، كقوله:

يَتَرشَّفنَ مِنْ فمي رَشفاتٍ هُنَّ فِيهِ أحْلَى مِن التوحيدِ

يترشفن، أي: يتمصصنَ، لينتهي القاضي إلى أنه إذا عيب على المتنبي من تفاوتِ شعْرِهِ ومن فساد عقيدته؛ فإن له نظائره عند أبي نواس، ويستمر في قياس الأشباه والنظائر على هذا النحو.

فالقاضي أشبهُ في دفاعِهِ بالمُدَافِعِ القضائي منه بالناقد، فيقيس الأشباه والنظائر ويعتمد على المقاصة؛ فإن يكن المتنبي قد قال شعرًا رديئًا، فقد قال مثله سيد المطبوعين وسيد أهل الصنعة، وإن يكن قد اتُّهِمَ بفساد العقيدة، فقد بلغ في ذلك الجاهليون، وكعب بن زهير، وابن الزبعرى، بل وأبو نواس ما لم يبلغ إلى مثله أبو الطيب، والشعر في نظرِهِ غير الدين.

وإن تكن للمتنبي مخارجُ رديئة فله الجيدة؛ ومن الواجب أن نعمل المقاصة بين النوعين.

وأما السرقات: فالجرجاني بعد أن بَسَطَ فيها كثيرًا من المبادئ السليمة، لم يأخذ بها؛ بل اكتفى بأن استبعد اللفظ، ثم راح يجمع كل ما قيل مشابهًا لمعاني الشاعر دون أن يدل على أخذٍ أو يرفض دعوى في هذا السبيل، حتى جاء الجزء الخاص بالسرقات خاليًا من كل درس أو تحقيقٍ أو تطبيقٍ لمبادئ، وإن يكن لصاحبه فيه فضل فهو فضل الجمع فقط.

وأما القسم الثالث فقد حوى نقدًا منهجيًّا دقيقًا، وهو جديرٌ بأن يسمى (الوساطة بين المتنبي وخصومه)، فقبل أن يبدأ المؤلف مناقشته حدَّد كما اعتاد موضع الخصومة ومنهج حلِّهَا، ووصل إلى ما عابَهُ النقاد من شعر أبي الطيب فوجده أصنافًا، منها ألفاظ نسبت إلى اللحن في الإعراب وادُّعِيَ فيها الخروج عن اللغة، ومنها معانٍ وصفت بالفسادِ والإحالة، والاختلال والتناقض، واستهلاك المعنى، وأخرى أنكر منها التقصير عن الغرض، والوقوع دون القصد.

وعيب فيها أمثال التعقيد، والعويص، واستهلاك المعنى، وغموض المراد، وبُعْدُ الاستعارة، والإفراط في الصنعة، وقد وقف عند كل عيبٍ على حدة، ذاكرًا أمثلة له من اللغة والنحو والأسلوب؛ حيث وُجِّهَ للمتنبي النقدُ فيها، فينقل الجرجاني أن النقاد يعيبون على المتنبي استعمالَ كلمة لا أصل لها في العربية، وهي كلمة "مخشلب" في قوله:

بياضُ وجهٍ يُرِيكَ الشمسَ ودرٌّ لفظٍ يريكَ الدُّرَّ مُخْشَلِبَا

الدر جمع درة، وهي: اللؤلؤة العظيمة الكبيرة، وكلمة مخشلب لم ترد في كتب اللغة المتقدمة، وإن كانت وردت في كتب اللغة المتأخرة بمعنى الخزف وقطع الزجاج المتكسر، وتستشهد لها هذه الكتب بهذا البيت.

ويذكر بعض العلماء أن اللفظ نبطي، وهو خرز من حجارة البحر وليس بِدُرٍّ. ويبدو أن النقاد في إيرادهم هذا المثال، لا يريدون أن ينكروا على الشاعر استعماله لكلمة أجنبية

اضطُر إليها؛ لما تحمله من دلالةٍ خاصة في موضعها من السياق، وإنما الــذي ينكرونــه ادعاء المتنبي أن الكلمة عربية فصيحة، وأن العجاج قد ذكرها في شعره.

ويعقِّبُ الجرجاني على ذلك بأنه لم يعرفها في شعر العجاج، ولم يحفظها محكيةً عن العرب، وإلا فليس محظورًا على الشعراء استعمال الكلمات الأعجميــة حــين احتيــاجهم إليها؛ لإقامة الوزن وإتمام القافية.

وقد ذكر الجرجاني أمثلةً لكلمات فارسية استعملها شعراءُ قبل المتنبي، وقــال: "إن المحدَثين توسعوا في ذلك حين احتاجوا إلى الإفهام، وكانت تلك الألفاظ أغلب على أهــل زمانهم، وأقرب من أفهام من يقصدون إفهامه".

ويعرض الجرجاني مآخذ النقاد على قول المتنبي أيضًا:

أُحَادٌ أم سُدَاسٌ في أُحَادِ لُيَيْلَتُنَا المنوطَةُ بِالتَّنَادِ

وتنحصر في أن سُدَاس غير مروية عن العرب؛ لأن المروي عنهم صــيغ بعينهــا، معدولة عن واحدٍ واحد إلى أربعة أربعة، ثم عشرة عشرة، فيقولون: أحاد وثناء وربــاع وعشار، كما أن "أحاد وسداس" لا يقومان مقام واحد وستة على النحو الذي ورد به فــي البيت، ثم إنه صغَّر الليلة، ووصفها بعد ذلك بالطول ووصلها بالتناد.

ويأتي الرد على تلك المآخذ منسوبة للمتنبي نفسه، من أنه قد جاء عن العرب خماس وسداس إلى عُشار حكاه أبو عمرو الشيباني، وابن السكيت، وذكره أبو حاتم، كمــا أنــه

وردت شواهد في الشعر القديم لاستعمال كلمة سُدَاس معدولة عن ستة ستة، أي: للتكرير، واستعمال كلمتي أحاد وسداس على معنى الأعداد المفردة.

وأما تصغير الليلة واستطالتها، فيرد عليه المتنبي بأن التصغير للتعظيم، وأنه لم يقصد بالتناد القيامة، وإنما قصد مصدر: تناد القوم.

ومن المآخذ النحوية التي يمكن أن نجد ما يُسَوِّغُهَا عند الكوفيين: الفصل بين المضاف والمضاف إليه في أبيات ذكرها القاضي. وأما التعقيد فلا يرى الجرجاني وجهًا لتبريره، وخاصةً إذا لم تسفر العبارة في النهاية عن كبير معنى، ويأتي تعليقه على مثالٍ مشهور له في شعر المتنبي، يحمل قدرًا من التهكم على غير العادة.

يقول الجرجاني: "قلت: احتملنا له ما قدمناه على ما فيه من فنون المعايب وصنوف القبائح، كيف يُحْتَملُ له اللفظ المعقد، والترتيب المتعسف لغيرِ معنًى بديعٍ يفي شرفه؛ كقوله:

وَفَاؤُكُمَا كالرَّبْعِ أشْجَاُه طَاسِمُهُ　　　بأن تسعدَا والدمعُ أشْفَاهُ سَاجِمُه؟

الطاسم: الغبرة، وقوله: ساجمه، من سجمت العين الدمع سجمًا، أي: أسالته.

ومن يرى هذه الألفاظ الهائلةَ، والتعقيدَ المفرط فيشك أن وراءها كنزًا من الحكمة، وأن في طيِّهَا الغنيمةَ الباردة، حتى إذا فتشها وكشف عن سترِهَا، وسهر لياليَ متواليةً فيها حصل على أن وفاءكما يا عاذلي بأن تسعداني، إذا دُرِسَ شجاي وكل ما ازداد تدارسًا ازددت له شجوًا، كما أن الربع أشجاه دارسه، فما هذا من المعاني التي يضيع لها حلاوة

اللفظ وبهاء الطبع ورونق الاستهلال، ويشح عليها -أي يحرص عليها-حتى يهلهل لأجلها النسج ويفسد النظم".

كما دافع القاضي عن أمثلةِ المبالغة الشديدة التي وردت للمتنبي، ويقيسها إلى ما ورد عن الأقدمين، ويرى أنهم هم الذين مهدوا الطريق للمحدَثين الذين وجدوا سبيلًا مسلوكًا وطريقًا موطأ، فقصدوا، وجاروا، واقتصدوا، وأسرفوا، وطلب المتأخر الزيادة، واشتاق إلى الفضل فتجاوز غاية الأول، فإذا سمع المحدَث قول الأول:

ولو أنَّ ما أبقَيْتِ مِنِّي معلَّقٌ بعودِ ثُمَام مَا تأود عودُها

تأود، أي: انعطف واعوج، سهل لأبي الطيب الطريق فقال:

كفى بجسمي نحولًا إنني لَولَا مخاطبتي إياكَ لَم تَرَنِي

فمقياس الغلو الجائز عند الجرجاني: ألا يصل الشاعرُ إلى الإحالة، ويعترف في الوقت نفسه بأن المتنبي تجاوَزَ هذا الحَدَّ في بعض أشعاره، وشجعه على ذلك وجود سوابق شعريةٍ لدى القدماء، ورغبته في الزيادة عليها إلى أبعدِ غايةٍ ممكنة، فلما رأى مهلهلًا قد قال:

سَلَّهُ الرَّكْبُ بعْدَ وَهْنٍ بنجْدٍ فَتَصَدَّى للغَيْثِ أَهْلُ الحِجَازِ

والمسافة واسعة بين نجد وأهل الحجاز. يريد: أن السيف عندما أخرج من غمده بنجد؛ أبصر أهل الحجاز بريقه فظنوه برقًا، فانتظروا الغيث الذي يعقبه.

وفي مبالغة أخرى من مبالغات المتنبي، يصرح الجرجاني بأن المتنبي لـم يكتـرث بالإحالة، ولم يستقبح أن جعل غير شيء مرئي حين استوفى عند نفسه الغاية، ولـم يبـقَ وراءها مرمى لشاعر، فقال:

وَضَاقَت الأرضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُم إذا رَأَى غيرَ شيءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا

فواضح أن الجرجاني لا يريدُ بمقايسة المتنبي إلى المحدَثين، ومقايسـة المحـدَثين إلـى القدماء في باب المبالغة، لا يريد الدفاع عنها وتبريرها؛ وإنما يريد أن يعامـل المتنبـي معاملةَ الأقدمين الذين احتمل لهم الكثير من الإغراق الفاحش، ولم يسـقطوا مـن عـداد الشعراء لأجل ذلك، إذ يقول القاضي: "ولسنا نذهب بما نذكره في هـذا البـاب مـذهب الاحتجاج والتحسين، ولا نقصد به قصد العذر والتسويغ، وإنما نقول: إنه عيب مشـترك وذنب مقتسم؛ فإن احتمل فللكل، وإن رد فعلى الجميع، وإنما حظ أبي الطيب واحـدٌ مـن عُرْضِ الشعراء، أي: من عامتهم، وموقعه منه موقع رجل من المحدَثين".

ما أُخذ على المتنبي من استعارات بعيدة:

إن الجرجاني في مناقشته لمنتقدي بعض استعارات المتنبي، ذات الطابع التشخيصي –لا يكاد يخرج عن الخطِّ الذي رسمه الآمدي وقدامة من قبله؛ فهو يدعو إلى الاقتصـاد في الخيال، والاحتفال بالتشبيه على حساب الاستعارة، ويحاول رد الاستعارات البعيدة إلى أصل تشبيهي. ويحكي الجرجاني: أن بعض أصحابه كان يجاريه أبياتًا أبعـد فيهـا أبـو الطيب الاستعارة، وخرج عن حد الاستعمال والعادة؛ فكان مما عدَّد منها قوله:

مَسَرَّةٌ في قُلوبِ الطَّيْرِ مَفْرِقُهَا وحسرةٌ في قُلوبِ البيضِ واليَلَبِ

اليلب: جمع يلبة، وهي جلود يخرز بعضها إلى بعض، تُلْبَسُ على الرءوس، فقال الجرجاني: "جعل المتنبي للطِّير والبِيضِ واليَلَب قلوبًا، كما جعل للزمان فؤادًا في بيت آخر حين قال:

تجمّعتْ فِي فؤادِه هِمَمُ مَلأَ فُؤَادَ الزَّمَانِ إحْدَاهَا

وهذه استعارة لم تجرِ على شبهٍ قريبٍ ولا بعيد؛ وإنما تصح الاستعارة على وجهٍ من المناسبة، وطرف من الشبه والمقاربة".

منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني

منهاج البلغاء وسراج الأدباء

لحازم القرطاجني

المؤلف

هو أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطاجني الأندلسي، الذي امتدت حياته من سنة (٦٠٨-٦٨٤هـ)، والقرطاجاني منسوب إلى قرطاجنة من سواحل كورة تدمير من شرقي الأندلس، وهو خاتمة شعراء الأندلس الفحول مع تقدمه في معرفة لسان العرب وأخبارها، ونزل إفريقيا بعد خروجه من بلده فطار بها صيته، وعمِّر، إلى أن مات بتونس، قالوا عنه: الإمام في النحو والعروض والبيان .

يقول عبده عبد العزيز قلقيله عن حازم وكتابه : ويمثل حازم حلقة هامة في سلسلة النقد الأدبي بالمغرب العربي، بل في سلسلة النقد الأدبي كله بكتابه/منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وقد كانت مخطوطته الوحيدة موجودة بالعبدلية في جامع الزيتون بتونس... وليس للكتاب أول ولا آخر، فهو ضائع الطرفين، والورقة الأولى من المطبوع لا تمثل أول الكتاب، والعنوان الموجود بها هو عنوان القسم الثاني منه، أما القسم الأول فضائع، وفي كلام حازم بعد ذلك ما يدل على أنه تناول فيه القول وأجزاءه والأداء وطرقه، والأثر الذي يحصل للسامعين عند سماع الكلام، والورقة الأخيرة كذلك لا تمثل آخر الكتاب لكنها

توحي بقرب الفراغ منه، فهي تتضمن المعرف {د} من المنهج الرابع وعنونه {المعرف دال على طرق المعرفة بمبلغ هذا الكتاب من أصول الصناعة} والأسطر القليلة التي تلته تشعر بأن ما بقي من الكتاب قليل، يتم فيه تصوير الغرض منه بما يشبه أن يكون تقريظا له، أما ما بقي من الكتاب، وهو المطبوع فيتكون من ثلاثة أقسام هي: الثاني والثالث والرابع في المعاني والمباني والأسلوب علي التوالي: وكل قسم من هذه الاقسام عبارة عن أربعة أبواب أطلق حازم علي كل منها اسم منهج =باب ، ثم جعل المناهج أو الأبواب متألفة من فصول دعاها علي التعاقب بمعلم أو معرف =فصل ،وهو يتبعها غالبا بملاحظات بلاغية أو نقدية يجمعها في فصول ختامية يعنون لها بمأم أو مآم = ملاحظات أو مبحث.

هذا وقد جعل فقر المنهاج متمايزة عن بعضها البعض، وعنون لها بلفظين على التعاقب، هما: إضاءة وتنوير.

ومن أهم الموضوعات النقدية في منهاج البلغاء:

١-خصائص الشعر، وضرورة الصدور فيه عن طبع وتعلم.

٢-المعنى واللفظ.

٣-التأثرية.

٤-مقومات الشخصية الأدبية، وهي(الطبع، والذكاء، والثقافة، والدربة).

٥-الفرق بين القاعدة العلمية، والقاعدة الفنية.

٦-الصدق والاختلاف في الأدب.

٧-العلاقة بين موسيقى الشعر وموضوعه.

٨-التعويل في إصدار الأحكام الأدبية على المتخصصين في النقد؛ فقد نعى على المتكلمين الذين إذا فرق أحدهم بين التجنيس والترديد، وماز الاستعارة من الإرداف ظن أنه حصل على شيء من هذا العلم، فأخذا يتكلم في الفصاحة بما هو محض الجهل بها.

وهو يتعجب ممن يظن أن صناعة البلاغة يتأتى تحصيله في الزمن القريب، وهي البحر الذي لم يصل أحد إلى نهايته، مع استنفاد الأعمار فيها، وإنما يبلغ الإنسان فيها ما في قوته أن يبلغه.

٩-مقياس جودة الشعر ومقياس رداءته.

وأفضل الشعر عند حازم ما حسنت محاكاته وهيأته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه، وقامت غرابته، وإن كان قد يعد حذقا للشاعر اقتداره على ترويج الكذب وتمويهه على النفس وإعجالها إلى التأثر له قبل، بإعمالها الرواية في ما هو عليه، فهذا يرجع إلى الشاعر وشدة تحيله في إيقاع الدلسة للنفس في الكلام، فأما أن يكون ذلك شيئا يرجع إلى ذات الكلام فلا.

وأظنه لهذا السبب كان استشهاده بشعر المتنبي في كتابه وترك غيره من الشعراء بل ترك من أجل هذا الشرط (وقويت شهرته) نتاج قريحته وفاء لمنهجه.

أما أردأ الشعر عنده ، ما كان قبيح المحاكاة والهيئة ، واضح الكذب، خاليا من الغرابة ، وما أجدر ما كان بهذه الصفة ألا يسمى شعرا، وإن كان موزونا مقفى، إذ المقصود بالشعر معدوم منه؛ لأن ما كان بذه الصفة من الكلام الوارد في الشعر لا تتأثر النفس لمقتضاه؛ لأن قبيح الهيئة يحول بين الكلام وتمكنه من القلب، وقبح المحاكاة يغطي على كثير من حسن المحاكي أو قبحه ، ويشغل عن تخيل ذلك ، فتجمد النفس عن التأثر له ، ووضوح الكذب ينزعها عن التأثر بالجملة.

"تنوير: فإن حسنت الهيأة والمحاكاة، ولم يكن الكذب شديد الوضوح، خادعا النفس ما تستشعره أو تعتقده من الكذب، وحركاها إلى اعتماد الشيء بفعل أو التخلي عنه تحريك مغالطة، فهذا أدنى مراتب الشعر إذا لم يعتد بما ذكرناه أولا"[٢٩].

١٠- الاعتدال في استعمال البديع .

ميله إلى الأمر الوسيط في الأدب، وهو يعلل هذا الميل بقوله "فإن الكلام إذا خف واعتدل حسن موقعه من النفس، وإذا طال وثقل اشتدت كراهة النفس له .

انظر إلى هذه الإضاءة الرائعة لحازم:

"وليس يحمد في الكلام أيضا أن يكون من الخفة؛ بحيث يوجد فيه طيش، ولا من القصر بحيث يوجد فيه انبتار، لكن المحمود من ذلك ما له حظ من الرصانة لا تبلغ به

---

[٢٩] [٢٩] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، محمد الحبيب بن الخواجه.

إلى الاستثقال، وقسط من الكمال لا يبلغ به إلى الإسآم والإضجار، فإن الكلام المتقطع الأجزاء المنبتر التراكيب غير ملذوذ ولا مستحلى، وهو شبه الرشفات المتقطعة التي لا تروي غليلا، والكلام التناهي في الطول يشبه استقصاء الجرع المؤدي إلى الغصص، فلا شفاء من التقطيع المخل ، ولا راحة مع التطويل الملل، ولكن خير الأمور أوسطها"[٣٠]

١١- التحجيل:

وبيانه أنه إذا كان التخييل هو قوام المعاني الشعرية فإن الإقناع هو قوام المعاني الخطابية، واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعرية شائع إذا كان ذلك على جهة الإلمام في الموضع بعد الموضع ، ونص ما أورده حازم في ذلك :

"مأم من المذاهب المستشرفة مما تقدم أيضا ، وهو مذهب التحجيل".

"وإذا ذيلت أواخر الفصول بالأبيات الحكمية والاستدلالية واتضحت شيات المعاني التي بهذه الصفة على أعقابها – فكان لها ذلك بمنزلة التحجيل – زادت الفصول بذلك بهاء وحسنا ووقعت من النفوس أحسن موقع"[٣١].

---

[٣٠] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، صـــ١٩.

[٣١] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، صـــ٩٧.

أثر قدامة بن جعفر في تقسيم الكتاب

وتقسيم الكتاب بهذا الشكل بقدر ما يكشف عن أثر قدامة بن جعفر في ضبط شكله ظاهرا، وقدامه حاضر في كثير من مباحث الكتاب بقدر ما يدل على المنطلق المؤسس لثنائية اللفظ والمعنى عند حازم، وتسليمه المبدئي بكون القصيدة تركيبا متناسبا من مستويات متنوعة ترتد إلى معان وأساليب مصوغة في ألفاظ تتلاحم في نظام جامع لشتات مركب من أغراض.

والأساس الفلسفي الذي يؤسس منهج الكتاب وتفريعات موضوعيه ويحصر تصور حازم المعنى واللفظ، يمتد إلى رأيه في الدلالة عموما، وفي طابعها العائد إلى فلاسفة الإسلام، حيث تترتب مستويات الدلالة في تدرج نوعي يبدأ من الوجود الشخصي العيني، فالذهني؛ لتتقمص أثره المدلولات جسم الألفاظ، هذه المدلولات التي يمكنها (في رأيه) أن تستقر في رسم حروف تدل على ألفاظ، ذلك أن "المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة ، فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ. فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ من لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بها صارت

رسوم الخط تقيم في الأفهام هيآت الألفاظ فتقوم بها في الأذهان صور المعاني فيكون لها أيضاً وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها"[٣٢].

ومعنى هذا أن صورة اللفظ الذهنية التي يكون للفظ القدرة على رسمها عند التعبير ستتشكل طبيعتها بحسب صورة اللفظ.

طريقة حازم في كتابه:

مما نبه له إحسان عباس أن صاحب المنهاج قد اتخذ طريقا له في عرض أفكاره يمكن تقسيمها إلى :

١-أسلم نفسه إلى وضع القواعد.

٢-لم يحاول التمثيل إلا في النادر .

٣- نتيجة لما سبق جاء كلامه نظريا، ولكنه سلم مما تورط فيه ابن رشيد من التباين بين القاعدة والمثال، فما يراه إحسان عباس نقيصة عند حازم نظر إليه غيره من النقاد العرب على أنه تنظير وتقعيد للشعرية العربية.

---

[٣٢] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، صـــ٤.

رأي الباحث مصطفى الغرافي

يرى أن ما قام به حازم يعد بدايات التقعيد للشعرية العربية ، فقال" إن المهمة الأساس التي انتدب لها حازم كتابه هي التأصيل لعلم الشعر من أجل الكشف عن جوهر الشعر العربي ، وما أبدت فيه العرب من العجائب، عن طريق وضع قوانين كلية تعرف بها أحوال الجزئيات ، وهو أمر لن يتحقق إلا بتأصيل منهج جديد في البحث ، يستكمل ما ورد عن الأوائل من قوانين، ويتجاوزها بما يستجيب لخصوصيات الشعر العربي"[٣٣].

كما أنه وصف عمله بأنه "مغامرة جريئة تتجه لبناء معطيات نظرية وتأصيل مواقف وتصورات تتسم بكثير من الجهد، من أجل الانفلات من أسر التقليد والتبعية، لإنشاء مقاربة اجتهادية لا تستكين إلى الجاهز، وإنما تعمل بإصرار لابتكار طريق خاص في التفكير يتميز بالطابع الاجتهادي والتأصيلي كأسلوب مساعد في بناء نظر بلاغي خلاق ومبتكر"[٣٤] .

يأس حازم، وإخلاصه، وطريقته في عرض فكرته:

يبدو أن حازما أصيب باليأس والإحباط، ولكن اليأس من الحال لم يقلل الإخلاص في محاولة الانتقاد ، وحقيقة الحال أن اليأس الذي كان يتسلل إلى حازم بسبب وضع الشعر والنقد في عصره، ولم يمنعه هذا من أن يكون مخلصا في رسم منهجه النقدي ، إلا أن قلة

---

[٣٣] الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال –منهاج البلغاء وسراج الأدباء––(مشروع قراءة)، مصطفى الغرافي، https://www.ahewar.org/search/Dsearch.asp?nr=3823

[٣٤] المرجع نفسه .

ثقته في المستوى الثقافي لأبناء ذلك العصر لم يحفزه على النزول إلى مستواهم؛ فكتب منتحلا خطة كان الشكل الذي اختاره يناقض الغاية العملية من الإصلاح الذي ارتآه، فذهب جهده صيحة في وادٍ، ولم يستطع أن ينقد الشعر أو يوجه النقد، ولو كان كتاب حازم ظهر يوم ظهر نقد الشعر لقدامة أو الموازنة للآمدي لكان له – فيما أقدر– في توجيه النقد دور آخر.

جهود حازم القرطاجني النقدية

قال إحسان عباس "من يقرأ منهاج البلغاء لحازم يحس أنه يضع قواعده النقدية وضعا جديداً، على الرغم من إشاراته إلى تأصيل تلك الآراء وانبثاقها من تراث نقدي عربي هائل ولعصور عديدة ، وحديثه عن وفاء الناقد لهذا التراث لا في جمع المادة النقدية ولا تقديمها جاهزة بل في استغلالها ببراعة وذكاء، وهو ما يتيح التفاعل معها تفاعلا نصيا.

ومما يؤكد جمع حازم القرطاجني بين الثقافة العربية في النقد الأدبي وثقافة الآخر غير العربي ما ذهب إليه إحسان عباس في قوله "وربما كانت أخر صلة بين كتاب أرسطو والنقد العربي متمثلة في كتاب حازم القرطاجني(منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، وحازم ينتمي إلى شرق الأندلس، غير أنه غادر وطنه حين سقط بلده في يد الروم أو قبيل ذلك ، وعاش في ظل الدولة الحفصية، وفي مهجره الجديد كتب كتابه المذكور.

وقد عرض عبده قلقيلة لكتاب حازم القرطاجني، ثم قال: ومهما يكن من موضوعات كتاب حازم فإن آراءه في كل موضوع على حدة هي التي تعطي القيمة الحقيقية له ولكتابه، ويعتبر الزركشي منهاج البلغاء لحازم، ومقدمة التفسير لابن النقيب أجمع وأتم ما صنف العلماء في علمي البيان والبديع، ويرى غيره أن كتاب حازم يفوق كل الكتب السابقة

في هذا الفن؛ للطريقة الحكيمة المنطقية التي سلكها في معالجة مسائله وقضاياه، وللأسلوب الرصين المتزن الذي كتبه به.

وهذا كلام حق؛ فقد استدرك حازم بكتابه على جملة الكتب النقدية التي تقدمته، وكان مدركا لعمله وقاصدا له بدليل قوله: وقد تكلم الناس في ضروب المطابقات وبسطوا القول فيها فلا معنى للإطالة؛ إذ قصدنا أن نتخطى ظواهر هذه الصناعة، وما فرغ الناس منه إلى ما وراء ذلك مما لم يفرغ منه.

النقد الجملِي عند حازم

وهنا ننبه إلى قسم من نقد حازم أشار إليه قليقلة بأنه النقد الجملي، ولكنه ليس بالمعنى السابق الذي أشرنا إليه في النقد العربي الانطباعي القديم، بل هو أن ينظر الناقد في النص المنقود كله، ولا يكتفي بقراءة بعضه كي يكون الحكم عليه وعلى صاحبه عادلا ومنصفا، ومن صميم هذا النقد نجده في حديث حازم عن الإعجاز القرآني ، واستمرار فصاحته وبلاغته مع طول المدة التي نزل فيها على مدار بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– فلم يحدث خلل في أية من آياته، ولا سورة من سوره، ولو كان هذا القرآن من صنع البشر لاختلف اختلافا كبيرا على حسب الفترة والحالة النفسية للمؤلف أو الأديب صاحب النص، بل والإعجاز الأكبر أن يكون القرآن الكريم النموذج الموافق لكل العصور بعد النبي –صلى الله عليه وسلم – إلى يوم القيامة، فلو كان هذ القرآن من قول البشر لعبر عن الأهواء الفنية والبلاغية لأبناء عصره وبعض العصور التالية فقط.

اللفظ والمعنى عند حازم القرطاجني :

يرى بعض الباحثين أن صاحب منهاج البلغاء أسس منهجه في الكتاب انطلاقا من فكرته في اللفظ والمعنى ، إلا أنه لم يفرق بينهما، بمعنى أنه لم يتحدث عن المعنى منفردا، أو اللفظ منفردا، ولكنه تناولهما في موضوع واحد وحديث واحد ، فجاءت أقسام الكتاب الأربعة ترددا متكررا للفظ والمعنى في مستوى بسيط أو مستوى مركب.

فالقسم الأول الضائع من الكتاب يبحث في الألفاظ، ويختص الثاني بالمعاني، ليتضخم بحث الألفاظ في قسم ثالث أسماه النظم، ولتستحيل المعاني إلى قسم رابع مركب أيضا هو الأسلوب.

فقد أولى حازم اهتماما أكبر للمعنى وقدم تصورا خاصا له، فالمعنى عنده ليس اللفظ المطابق لمقتضى الحال، وليس المعنى الظاهر القريب، بل المعاني لديه هي التي يمكن التوصل إليها عن طريق البحث في حقائق المعاني ذاتها وأحوالها، وطرق اجتلابها وتأليفها وموقعها في النفوس، وتركيبها وتضاعفها، وطرق استثارتها، واستنباطها، وانتظامها في الذهن ، وأساليب عرضها وصور التعبير عنها.

مستوى التميز بين المعنى واللفظ عند حازم:

يقدم حازم في مستوى التمييز بين المعنى واللفظ فهما بسيطا لا يعد أن يكون اجترارا لمفاهيم شائعة يبدو فيها اللفظ كالوعاء المحتوي للشيء، فيصف رغبة الشعراء في رسم

صورة لأحبابهم المقيمين في بيوت الشعر، وكأن بيت الشعر هو البيت الذي بناه الشاعر لممدوحه، فيحاول تزيينه بالجماليات والمحسنات؛ ليكون ملائما للممدوح.

البناء النثري والشعري عند حازم

يشبّه حازم بناء النثر ببناء الشعر، فبناء الشعر يبدأ بالأبيات، فالفصول، فالقصائد، وهذا يناظر في النثر بناء الحروف، فالكلم، فالعبارات، يقول: اعلم أنّ الأبيات بالنسبة إلى الشعر المنظوم نظائر الحروف المُقطعّة من الكلام المؤلف، والفصول المؤلفة من الأبيات نظائر الكلم المؤلَفة من الحروف، والقصائد المؤتلّفة من الفصول نظائر العبارات المؤلّفة من الألفاظ. فكما أنّ الحروف إذا حَسُنَتْ حَسُنت الفصول المؤلّفة منها إذا رتبت على ما يجب كما أنّ ذلك في الكَلِم المفردة كذلك وكذلك يحسُن نظم القصيدة من الفصول الحسان، كما يحسُن ائتلاف الكلام من الألفاظ الحِسَان إذا كان تأليفها منها على ما يجب.

اللفظ والمعنى بين حازم وغيره :

ولم يكن حديث حازم عن اللفظ والمعنى بنفس الصورة التي تحدث بها السابقون من النقاد العرب، فقد تناولها كما تبين لك من خلال موضوعات أخرى أكثر شمولا وتعبيرا عن الفكر والعاطفة لدى الشاعر والمتلقي، يقول الدكتور إحسان عباس : ولكن النقد في حقيقته تعبير عن موقف كلي متكامل في النظرة إلى الفن عامة أو إلى الشعر خاصة يبدأ بالتذوق، القدرة على التمييز، ويعبر منها إلى التفسير والتعليل والتحليل والتقييم، خطوات

لا تغنى إحداهما عن الأخرى وهي متدرجة على هذا النسق؛ كي يتخذ الموقف نهجا واضحا، مؤصلا على قواعد –جزئية أو عامة– مؤيدا بقوة الملكة بعد قوة التمييز.

حازم وقضية السرقات:

أولا السرقة عند نقاد العرب:

تناول النقاد العرب قضية السرقات الأدبية بصور متنوعة، فيرى أبو هلال العسكر في كتابه الصناعتين أنه "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم.

وعرض الجاحظ– قبل أبي هلال– لظاهرة السرقات الأدبية /تداول المعاني، وإن لم يتحدث عنها بنفس المصطلح الذي استخدمه لاحقه، حيث يرى أنه "لا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام، وفي معنى غريب عجيب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مخترع، إلّا وكل من جاء من الشعراء من بعده، أو معه، إن هو لم يعدُ على لفظه؛ فيسرق بعضه، أو يدعيه بأسره، فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكًا فيه؛ كالمعنى الذي تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحدهم أحق بذلك المعنى، من صاحبه، أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط، وقال: إنه خطر على بالي من غير سماع، كما خطر على بال الأول"[٣٥].

[٣٥] الحيوان، الجاحظ، ٣١٢/١،٣١١.

السرقة عند حازم القرطاجني

أما حازم القرطاجني فإنه لم يعالج السرقات الأدبية في كتابه منهاج البلغاء تحت هذا المسمى، وإنما عالجها تحت ما سماه بمعلم دال على طرق العلم بأنحاء النظر في المعاني من حيث تكون قديمة متداولة أو جديدة مخترعة.

لم يستطع حازم في هذه المسألة أن يستفيد من عبد القاهر الذي أداه فهمه لصورة المعنى إلى رفض السرقات مبدئيا باستثناء الاعتراف بهامش ضيق يظهر في الاحتذاء الذي يكون في الأسلوب، الذي هو الطريقة في النظم، ذلك أن كل معنى يصاغ في صورة ما يملك الخصوصية والتفرد، ويشكل تفريعا من أصل الغرض.

تقسيمه للمعنى بحسب قربه من السرقة:

يقسم حازم المعاني إلى :

١-مشترك شائع.

٢-نادر منعدم النظير.

٣-أوسط بينهما.

وذلك تبعا لارتسام درجة كل نوعين الفكر، إذ أن من المعاني ما يوجد مرتسما في كل فكر ، ومنه ما يرتسم في بعض الخواطر دون بعض، منه ما لا ارتسام له في خاطر، وإنما يتهدّى إليه بعض الأذهان في النادر من الأحيان.

وينتفي إدعاء السرقة من النوع الأول، إذ لا فضل فيه لأحد على أحد، إلا بحسن تأليف اللفظ ، فإذا تساوى تأليف الشاعرين في ذلك فإنه يسمى الاشتراك، وإن فضلت في عبارة المتأخر عبارة المتقدم، فذلك الاستحقاق لأنه استحق نسبة المعنى إليه بإجادة نظم العبارة عنه "هذا النوع الأول من المعاني المرتسمة في كل خاطر تبدو كالمكتملة، وإدراكها يتم في حدود هذا الاكتمال، فهي ثابتة، وارتسامها سواء في الخواطر، ومن هنا تكون مزية تعاطي هذه المعاني في تحسين تأليف اللفظ فقط، ، وهذا التحسين المضاف إلى معنى منته إقرار بالتفاوت بين المعنى واللفظ، حيث يتأكد هذا الإقرار في رآيه في القسم الثاني ، وهي المعاني التي قلت في أنفسها، أو بالإضافة إلى كثرة غيرها، فما كان بهذه الصفة فلا تسامح في التعرض إلى شيء منه إلا بشروط(بمعنى طرق الإفادة من المعاني القليلة النادرة) منها:

١-أن يركب الشاعر على المعنى معنى آخر ، ومنها أن يزيد عليه زيادة حسنة.

٢-ومنها أن ينقله إلى موضع أحق به من الموضع الذي هو فيه.

٣- ومن ذلك أيضا أن يقلبه ، ويسلك به ضد ما سلك الأول.

٤-ومن ذلك أن يركب عليه عبارة أحسن من الأولى.

تأثر حازم القرطاجني بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني

قبل الحديث عن تأثر حازم بنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني نؤكد قراءة حازم لعبد القاهر، وتأثره به في المنهج العام للدراسة النقدية فيما بعد، فعبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة جمع بين الطريقة الأدبية القديمة في تحليل النصوص، وترك الأمور دون تقييد ولا تعقيد ولا تجريد لقواعد العلم وأصوله، وبين طريقة المتأخرين الذين غلب عليهم جفاف المنطق وصرامته، وشدة التجرد والتعقيد وقوته.

أما حازم القرطاجني فيبدو من منهجه أنه قرأ عبد القاهر ، واستوعب مفهومه للنظم، وأقام هذا المفهوم في مقابلة الأسلوب، إلا أنه ربط النظم بالصياغة اللفظية وبالعلاقات النحوية ، على نحو ما ذهب عبد القاهر، حيث يقول: لما كانت الأغراض الشعرية يوقع في واحد منها الجملة الكبيرة من المعاني والمقاصد، وكانت لتلك المعاني جهات فيها توجد ومسائل منها تقتنى كجهة وصف المحبوب وجهة وصف الخيال وجهة وصف الطلول وجهة وصف يوم النوى وما جرى مجرى ذلك في غرض النسيب، وكانت تحصل للنفس بالاستمرار على تلك الجهات والنقلة من بعضها إلى بعض وبكيفية الاطراد في المعاني صورة وهيأة تسمى الأسلوب، وجب أن تكون نسبة الأسلوب، وجب أن تكون نسبة الأسلوب إلى المعاني نسبة النظم إلى الألفاظ، لأن الأسلوب يحصل عن كيفية الاستمرار في أوصاف جهة من جهات غرض القول وكيفية الاطراد من أوصاف جهة جهة. فكان بمنزلة النظم في الألفاظ الذي هو صورة كيفية الاستمرار في الألفاظ والعبارات والهيئة

الحاصلة عن كيفية النقلة من بعضها إلى بعض وما يعتمد فيها من ضروب الوضع وأنحاء الترتيب.

فالأسلوب هيأة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم هيأة تحصل عن التأليفات اللفظية"[٣٦].

وهنا نرى أن حازما حاد عن رأي عبد القاهر الجرجاني، فقد اعتبر الأسلوب مشتملا على جانب من البناء اللغوي يختص بالتأليفات المعنوية، وحصر النظم على التأليفات اللفظية، وبهذا يكون حاد عما عُرف عن عبد القاهر الجرجاني من أن النظم يعتمد على الترتيب المعنوي في النفس، ثم تترتب الألفاظ وفق ذلك ، ولم يرد في نظريته ما قاله حازم من ربط النظم بالتأليفات وحدها، والنظم في مفهوم عبد القاهر لا يتساوى تماما مع مفهوم الأسلوب.

[٣٦] منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، صـــ١١٦.

تأثر النظرية النقدية عند حازم القرطاجني بظروف حياته الخاصة

ذهب إحسان عباس في كتابه (تاريخ النقد الأدبي عند العرب) إلى تأثيرات حياة حازم القرطاجني الخاصة في اتجاهه النقدي، فقال: "لم يكن غريبا على حازم الذي فقد وطنه أن يحس بالضياع، وأن ينعكس إحساسه هذا على حال الشعر والنقد في عصره "، فربط بين شعور حازم الشخصي بالضياع وقوله بضياع الشعر العربي ونقده.

قول حازم بضياع الشعر:

فمما جاء في منهاج البلغاء قول حازم عن ضياع الشعر والنقد :" أما الشعر فإنه منذ مائتي عام (عاش حازم بين ٦٠٨-٦٨٤هـ) يعاني خروجه عن مذهب الفحول في الإحكام والانتقاء، وقد تضاءل جمهوره، وقل المقبلون عليه، بل أصبح كثير من أنذال العالم- وما أكثرهم- يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة، مع أن القدماء كانوا يعظمون صناعة الشعر، حتى كانوا يرون في الشاعر كما يقول ابن سيبنا :"نبيا يعتقد قوله، وتصدق حكمته، ويؤمن بكهانته".

أسباب تردي الشعر عند حازم:

١-لعجمة في ألسنة الناس، ترتب عنها اختلال في طباعهم.

٢-سار الشعر وسيلة لاستدرار الأعطيات من السوقة، دون أن يعرفوا حقيقة الشعر، ظانين أن كل ما ركب على وزن وقافية يعد شعرا، وضاعت التفرقة بين الشعر الحق وهذا (الشبح) الذي يرسم صورة الشعر دون حقيقته.

٣-استنكف الذين يعرفون قدر الشعر عن أن يسلكوا أنفسهم في هذه الموجة من الانحطاط الفني ؛ خوفا من أن يظن الناس أن الفريقين –من النظامين والشعراء– على مستوى واحد، بل لعلهم ظنوهم كذلك ، فعاملوهم بنفس القدر من الاستهانة.

٤-شاع بين الناس أن الشعر زور وكذب، جهلًا منهم بحقيقة الشعر أيضا، أو حسدا للشعراء أدى بهم إلى تنقيص الشعر والدراية به، وبهذا لم يفقد الناس تقديرهم للشعر وحسب، بل إنهم فقدوا الهزة التأثرية عند سماعه.

ضياع النقد في رأي حازم

ولما تحدث إحسان عباس عن قول حازم بضياع النقد قال: وأما النقد فإنه صناعة سحب عليها الخمول أذياله، ولهذا يحس حازما باليأس من الاستقصاء فيه، لأن العناية بالشيء تكون على قدر المستهدفين، وقد أصبح المستفيدون قلة، هذا مع أن النقد، أو تعليم صناعة الشعر (أمر لا يستغنى عنه عصر من العصور).

اهتمام حازم بتعلم الشعر والنقد:

والجميل عند حازم في هذا القسم اهتمامه بضرورة تعلم نقد الشعر ودراسته، وإشارته الرائعة إلى أن شعراء العرب ونقادهم كانوا يأخذون الشعر وفنونه ونقده من سابقيهم ، ويتعلمونه بعضهم عن بعض" والدليل على ذلك أن كل شاعر ناشئ كان يلزم أد الشعراء المحنكين، ويتعلم مته قوانين النظم، ويتدرب على يديه في شئون البلاغة ، أما في عصر حازم كما يرى هو ويقول إحسان عباس :"فإن الذي يريد أن يتقن الفن الشعري يرى أن طبعه يهديه إلى ذلك دون حاجة إلى معلم ، فإذا اتقن الكلام الموزون المقفى ظن أنه أصبح واحدا من الفحول، ذلك لأنه يعتقد "أن الشعرية في الشعر إنما هي نظم، أي لفظ اتفق كيف اتفق نظمه، وتضمينه أي غرض اتفق، على أي صفة اتفق، لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع".

وهذا أمر لا يتفق وقوانين العلوم، (فإن قوانين العلوم في التعلم)، فإذا كان النقد الأدبي علما من علوم العربية فلابد من تعلمه، وتعلمه يحتاج إلى معلم يلزمه الناقد أو الشاعر؛ ليأخذ منه ذلك العلم.

فإن قوانين الشعر ونقده لا يتوصل إليها "إلا بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة" الذي تندرج ضمن كلياته علوم اللسان الجزئية، وتكتسب البلاغة صفة الشمولية من اهتمامها بالعملية الإبداعية في بعدها العام، إذا ما دام موضوع البلاغة هو الأدب، فإن المادة التي يتعامل معها هذا العلم هي الكلمات المنتظمة في سياق خاص، والمنطوية على قيمة، حيث تندرج هذه الكلمات في إطار من العلاقات المتجاورة مع عناصر العملية

الإبداعية ، بما فيها المبدع بوصفه الفاعل الأساسي في عملية الخلق الفني، العالم الذي يستمد منه المبدع المادة الخام لإبداعه، المتلقي الذي يتوجه إليه المبدع بنصه، ثم النص الأدبي، بوصفه نتيجة التفاعل بين المبدع والعالم، يقول حازم "يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية في نفس، ومن جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفوس، ومن جهة هيأته ودلالته، ومن جهة هيأتها ودلالتها على مخارج الذهن، ومن جهة ما تكون عليه في أنفسها الأشياء تلك المعاني الذهنية صور لها ، وأمثلة دالة عليها ، ومن جهة مواقع تلك الأشياء من النفوس"[٣٧].

[٣٧] ينظر: الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال –منهاج البلغاء وسراج الأدباء–(مشروع قراءة)، مصطفى الغرافي .

الصناعتين لابي هلال العسكري

المبحث الأول : التعريف بأبي هلال، وكتابه (الصناعتين)

المبحث الثاني : منهج أبي هلال النقدي في (الصناعتين)

المبحث الثالث : آراء العلماء في منهج أبي هلال في (الصناعتين)

الصناعتين

لأبي هلال العسكري

المؤلف

أبو هلال العسكري هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، وُلِدَ في قرية من قرى الأهواز وهي عسكر مكرم، وهذه القرية واقعة بين البصرة وفارس، وهي قرية اختطّها مولى للحجاج بن يوسف اسمه مكرم، كان قد أرسله الحجاج لتأديب ابن بأس فرابط في مكان هذه القرية، وزادها بناءً، وسماها بالاسم الجديد، ويقال له: مكرم الحارثي، أو مكرم الباهلي.

وقد انتسب أبو هلال إلى هذه القرية، فسمي بأبي هلال العسكري، وأقام بها معظم حياته، وتنقل بين البصرة وبغداد، واشتغل بتجارة الثياب إلى جانب تحصيل العلم وتعليمه، وتنوعت مناحي ثقافته بين العلوم الدينية والعربية حتى صار أديبًا، وشهرة خاله الذي وافق اسمُه اسمَه، ووافق اسمُ أبيهِ اسمَ أبيه أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري –غطت على شهرة صاحبنا أبي هلال، فلم يبلغ مبلغ خاله حتى توفي خاله سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة عن نحو تسعين عامًا.

فقعد أبو هلال مقعد خاله وأستاذه، وألف وصنف، وقدم للمكتبة العربية كتبه التي تتابعت متلاحقة، حيث فرغ من تأليف كتابه (الصناعتين) في شهر رمضان سنة أربع وتسعين

وثلاثمائة، كما فرغ من كتابه المسمى بـــ (الأوائل) لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وهي السنة التي توفي فيها عن خمسة وثمانين عاماً، حيث قال أبو هلال في شعر له أنشده قبيل وفاته:

ليَ خمسٌ وثمانونَ سنهْ فإذا قدَّرتها كانَتْ سنهُ

إن عمرَ المرء ما قد سرَّه ليسَ عمرُ المرءِ مرَّ الأزمنه

ولأبي هلال مصنفات شتى، منها كتب التراجم: (التخليص) و(الصناعتين) و(جمهرة الأمثال)، و(معاني الأدب) و(من احتكم من الخلفاء إلى القضاة)، و(ديوان الحماسة) و(المحاسن في تفسير القرآن) و(العمدة)، و(ما تلحن فيه العامة) و(أعلام المعاني في معاني الشعر)، و(الأوائل) و(الفرق بين المعاني)، و(المصون في الأدب) و(المعجم في بقية الأشياء)، و(شرح ديوان أبي محجن الثقفي) و(رسالة في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم). وطبع من هذه المصنفات كتاب (الصناعتين) و(ديوان المعاني)، و(المعجم في بقية الأشياء) و(جمهرة الأمثال)، ورسالته في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم وغيره.

ولصاحبنا شعرٌ كثيرٌ منوَّع المعاني والأغراض، فنجد أمثلة منه في كتابه (الصناعتين) و(ديوان المعاني)، وكتاب (الصناعتين) كتاب في صناعة الكتابة، وفي صناعة الشعر، هكذا يدل العنوان، ولكن تضاعيفه تنبئ عن اهتمامه بالشعر أكثر من اهتمامه بالكتابة،

أي: النثر، وهذا أمر معهود في معظم المصنفات القديمة؛ لما للشعر من مكانة في التاريخ الأدبي.

معنى هذا: أن كتاب (الصناعتين) قسمان كبيران، ينتمي القسم الأول في جملته إلى النقد الأدبي، وينتسب القسم الثاني كله إلى البلاغة، ومعنى هذا: أن كتاب (الصناعتين) دفع بالنقد صوب البلاغة دفعةً قويةً، بحيث صار الشأن للعناية بتأليف الكلام، وتفنين العبارة على ما تقتضيه الصناعة البلاغية، التي أتى أبو هلال بمثلها من القرآن الكريم، والحديث الشريف، ومنظوم كلام العرب ومنثوره في القديم، والحديث إلى عهده.

والقسم الأول من الكتاب الذي ينتمي في جملته إلى النقد الأدبي، عبارة عن عدة أبواب في الإبانة عن موضوع البلاغة في أصل اللغة، وما يجري معه من تصرف لفظها، وذكر حدودها، وشرح وجوهها، وفي تمييز الكلام جيده من رديئه ومحموده من مذمومه، وفي البيان عن حسن السبك وجودة الرصف، وفي ذكر الإيجاز والإطناب، وفي حسن الأخذ وقبحه، وجودته ورداءته، وفي التشبيه، وفي ذكر السجع والازدواج.

أما القسم الثاني من الكتاب وهو المنتسب كله إلى البلاغة، فهو عبارة عن شرح البديع والإبانة عن وجوهه وفنونه، وفي ذكر مقاطع الكلام ومبادئه، والبديع عنده خمسة وثلاثون فنًّا؛ منها: الاستعارة، والمجاز، والمطابقة، والتجنيس، والمقابلة... إلخ. وفي كل فن من هذه الفنون، يعرف أبو هلال بمعناه على نحو ما اصطلح عليه من سبقوه، وقد يناقشهم مرتضيًا ما يفهمه هو لا ما فهموه، أو يراجع أمثاله.

أما الهدف من (الصناعتين)، فيمكن حصره في أمرين:

الأول: خدمة القرآن الكريم بمعرفة وجوه إعجازه؛ عن طريق التعرف على علم البلاغة، الذي يدل على ما في القرآن الكريم من محاسن عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها.

الثاني: اكتساب معرفة الأدب، والوقوف على الجيد منه والرديء؛ للانتفاع بذلك لدى التحصيل والتصريف.

يقول أبو هلال في تقديمه للكتاب: "اعلم –علمك الله الخير، ودلَّكَ عليه، وقيضه لك، وجعلك من أهله– أن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله –جل ثناؤه– علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعْرفُ إعجاز كتاب الله تعالى، وهو الناطق بالحق الهادي إلى سواء الرشد، المدلول به على صحة الرسالة وصحة النبوة التي رفعت أعلام الحق، وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حُجُب الشك بيقينها.

وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة؛ لم يقع علمه بإعجاز القرآنِ من جهة ما خصَّهُ الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه، وجزالتها وعذوبتها، وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت العقول فيها.

وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه، وقصورهم عن بلوغ غايته في حسنه، وبراعته، وسلاسته، ونصاعته، وكمال معانيه، وصفاء ألفاظه. وقبيحٌ -لعمري- بالفقيه المؤتم به، والقارئ المهتدي بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن مناظرته، وتمام آلته في مجادلته، وشدة شكيمته في حجاجه، وبالعربي الصليب، والقرشي الصريح ألا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي، أو أن يستدل عليه بما استدلَّ به الجاهل الغبي.

فينبغي من هذه الجهة أن يُقَدَّم اقتباسُ هذا العلم على سائرِ العلوم، بعد توحيد الله تعالى، ومعرفة عدله، والتصديق بوعده ووعيده على ما ذكرنا؛ إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله -جل اسمه- ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة، ومناقب معروفة، منها: أن صاحب العربية إذا أخلَّ بطلبه، وفرط في التماسه، وعلقت به رذيلة فوته؛ عفّى على جميع محاسنه، وعمّى سائر فضائله؛ لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيدٍ وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد؛ بان جهله وظهر نقصه.

وهو أيضًا إذا أراد أن يصنع قصيدةً أو ينشئ رسالةً، وقد فاته هذا العلم؛ مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعَرَر؛ فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل"، ثم قال: "وإذا أراد أيضًا تصنيف كلام منثور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطى هذا العلم ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه؛ فأخذ الرديء المرذول، وترك الجيد المقبول؛ فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته وعلمه".

وقد أفاد أبو هلال ممن سبقه من العلماء، وأشهرهم الجاحظ؛ فقد اعتمد كتاب (البيان والتبيين) وجعله عمدته؛ لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة -كما يقول- والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة؛ إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة رآها مبثوثةً في تضاعيفِ (البيان والتبيين) ومنتشرة في ثناياه، فأراد شيخنا أن يصنفها، ويبوب أقسامها، ويحصر فنونها، ويشرح وجوهها، ويضرب الأمثلة عليها؛ لتتيسر الفائدة.

ومن أشهر العلماء الذين تأثر بهم أيضاً بالإضافة إلى الجاحظ: ابن المعتز؛ حيث تابعه في القول بالبديع، ونقل عنه مفهوماته وأمثلته، كما تأثر شيخُنَا أبو هلال العسكري أيضاً بقدامة بن جعفر في كتابه (نقد الشعر)، حيث ظهر كثيرٌ من آرائه في (الصناعتين)، منها القول بأن المديح يكون بالفضائل النفسية من العقل والعفة، والعدل والشجاعة.

وهذا القول لقدامة تأثر به أبو هلال؛ فالمادح بهذه الخصال والفضائل النفسية يُعَدُّ مصيباً والمادح بغيرها يعد مخطئًا، كما أخذ أبو هلال عن قدامة أيضاً فكرة الهجو بضد هذه الصفات، وكذا فكرة التشبيب بما يدل على الصبابة وإفراط الوجد، والتهالك في الصنعة، وكذا فكرة أن يستوعب الوصف أكثر معاني الموصوف حتى كأنه يصور الموصوف؛ فتراه نصب عينك، إلى غير ذلك من الآراء.

كما تأثر أبو هلال بأبي الحسن الآمدي؛ حيث نقل عنه عدداً من أقواله في أخطاء كلٍّ من أبي تمام والبحتري، ومحاسنهما، والمآخذ عليهما، وما يشاكل الصواب من معانيهما.

إن الناظر في كتاب (الصناعتين) يرى أن النقد قد انصرف عن النظر في الموازنة بين الشعراء كما صنع الآمدي، والوساطة بينه وبين خصومه كما صنع القاضي الجرجاني، إلى تقسيمِ أوجه البديع وشرح الطرق البلاغية، فيدرك القارئ أن النقد قد تحوَّلَ من الموازنة والوساطة إلى موازين أخرى تخضع للبلاغة بصورة واضحة جلية، وإذا تناولنا عناصر محددة للكشف عن المنهج النقدي الذي سار عليه أبو هلال في كتابه (الصناعتين)، والذي وصف هذا المنهج بأنه منهجٌ تقريريٌّ يعتمد على التعاريف والتقاسيم، مفترضاً تراكيب خيالية؛ فإنه يمكننا أن نقف عند أغراض الشعر لنظهر من خلالها هذا المنهج النقدي.

إن أغراض الشعر كما ذكر أبو هلال كثيرة، وإنما كثر استعمال ستة منها: المدح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والرثاء، والفخر، ولكل غرضٍ من هذه الأغراض معانٍ هي به أليق، وعلى الشاعر أن يعتمد هذه المعاني ويحفظها، ويطرح ما خالفها ليصيب شاكلة الصواب؛ لذلك نراه يقول: "والمعاني على ضربين:

ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلةٍ مماثلةٍ يعمل عليها، وهذا الضرب ربما يقع عليه عند الخطوب الحادثة، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتذيه على مثالٍ تقدم، وينبغي أن يطلب

الإصابة في جميع ذلك، ويتوخى فيه الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة، ولا يتكل فيما ابتكره على فضيلة ابتكاره إياه، ولا يغره ابتداعه له فيساهل نفسه في تهجين صورته فيذهب حسنه ويطمس نوره، ويكون فيه أقرب إلى الذم منه إلى الحمد".

ثم يقول: "وللخطأ صورٌ مختلفةٌ، نبهتُ على أشياء منها في هذا الفصل وبينت وجوهها، وشرحت أبوابها؛ لتقف عليها فتجتنبها، كما عرفتك مواقع الصواب فتعتمدها، وليكون فيما أوردتُ دلالة على أمثاله مما تركت، ومن لا يعرف الخطأ كان جديراً بالوقوع فيه". ثم يتناول ما يستحسن، وما يسترذل من المعاني المتصلة بالأغراض الستة.

الغرض الأول: المدح:

إذا نظرنا إلى المدح نجده يؤكد أن المديح بالفضائل التي تختص بالنفس، ولا تكون بأوصاف الجسم مستحسن، وهو في هذا متأثر بقدامة بن جعفر. وكثير من الأمثلة التي ذكرها أبو هلال تطبيقًا لوجهته هذه هي أمثلة قدامة.

ومن الأمثلة التي ذكرها: قول ابن قيس الرقيات في عبد الملك بن مروان:

يَأْتَلِقُ التّاجُ فوقَ مفرقهِ عَلَى جبينٍ كأنَّهُ الذَّهبُ

فغضب عبد الملك، وقال: "قد قلت في مصعب:

إِنَّما مُصْعَبٌ شهابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عن وَجْهِه الظَّلْماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغمم وجلاء الظلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه، وهو اعتدال التاج فوق جبيني الذي هو كالذهب في النضارة". فوجه العيب في هذا المديح عند أبي هلال، وقدامة أن الشاعر عدل بمدحه عن الفضائل النفسية الخاصة إلى ما هو عرَضي، وما هو من أوصاف الوجاهة والبهاء والزينة.

ومن الأمثلة أيضًا: قول أيمن بن خريم في بشر بن مروان:

يا بنَ الأَكَارِمِ مِن قُرَيْشٍ كلّها وابنَ الخلائِفِ وابنَ كلِّ قلمِّسِ

من فرع آدمَ كابَرا عَن كَابرٍ حتَّى أتيتَ إلَى أبيكَ العنبسِ

مروان، إنَّ قناتَهُ خطّــيّةٌ غرست أرومتُها أعزَّ المغرسِ

وبنيتَ عند مقامِ ربِّكَ قبَّةً خضراءَ كُلّلَ تَاجُهَا بالفَسْفَسِ

الخلائف في البيت الأول: جمع خليفة، والقلمس في البيت نفسه: القديم، والعنبس في البيت الثاني: الأسد، والفسفس: الفضة، والبيت المصور بالفسيفساء، وهي قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره، يؤلف بعضها إلى بعض كأنه نقشٌ مصور.

ثم يقول في بيت خامس:

فَسَمَاؤهَا ذهَبٌ وأَسْفَلُ أرشها وَرِقٌ تَلَأْلَأَ فِي صَمِيمِ الحَنْدَسِ

الورق بمعنى: الفضة، والحندس، أي: الظلام.

يقول أبو هلال: "فما في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الذي يختص بالنفس، وإنما ذكر سؤدد الآباء، وفيه فخر للأبناء، ولكن ليس العظامي كالعصامي، وربما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقيصةً للولد إذا تأخر عن رتبة الوالد، ويكون ذكر الوالد الفاضل تقريعًا للولد الناقص.

ثم ذكر أيمن بناءَ قبةٍ حسنة، وليس بناء القباب مما يدل على جود وكرم؛ بل يجوز أن يبني اللئيم البخيل الأبنية النفيسة، ويتوسع في النفقة على الدور الحسنة مع منع الحق ورد السائل، وليس اليسار مما يمدح به مدحًا حقيقيًّا، ألا ترى كيف يقول أشجع السلمي:

يريدُ المُلُوكُ مَدى جَعفرٍ وَلَا يصنعُونَ كَمَا يَصْنَعُ

وَلَيسَ بَأوسَعِهِم فِي الغِنَى وَلَكِنَّ معروفَهُ أَوْسَعُ؟".

فأيمن بن خريم من وجهة نظر أبي هلال، أخطأ من وجهين:

الخطأ الأول: لم يذكر لممدوحه فضلًا غير الآباء، ولم يذكر للممدوحِ فضيلةً من فضائلِ النفس، فليس في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الذي يختص بالنفس، وذلك أن كثيرًا من الناس لا يكونون كآبائهم في الفضل.

الخطأ الثاني: أن الممدوح بنى قبة ذات زخرف ونقش، وذهب وفضة، وهذا المدح باليسار ليس مما يمدح به مدحًا حقيقيًّا، وليس من النعوت الجارية على وجهها، فعند أبي هلال وكذا قدامة يجوز أن يبني الوضيع اللئيم الألكن بماله وثروته القباب الحسنة، ويتخذ الدور النفيسة؛ فليس في اليسار فضيلة، والمدح به قبيح مردود، ودلل على ذلك ببيتين لأشجع السلمي.

أما المعاني التي يكون بها المديح، ولا يكون المديح إلا بها؛ فهي الفضائل التي تختص بالنفس من العقل والعفة، والعدل والشجاعة، ومن أمثلتها: بيت جرير الذي عارض به بيت الفرزدق المعيب، يقول جرير:

فَمن يأمَنُ الحجَّاج أمَّا عِقَابُهُ فمُرٌّ وأما عقدُهُ فوثِيقُ

إذ وصف الممدوح بالقوة، وقوّى هذا المعنى بما ذكر من عقابه المُرِّ، فهو قادر على أن يبطش بمن يخرج عليه بطش الجبارين، وبما ذكره من عقده الوثيق؛ فهو قادر على إحكام أمره وإنفاذ عهده.

وهذا في مقابل مدحٍ معيبٍ؛ حيث ذكر أبو هلال مثالًا آخر عليه للفرزدق الذي مدح الحجاج بالقوة، مُدللًا عليها بأن الطير تتقي عقوبة الممدوح، فأخطأ الشاعر بإيراد هذا الدليل؛ إذ فاته أن الطير تنفر من كل شيء يتراءى لها أو تحسه أو تتوهمه، فليس

للممدوح فضل المديح بمثل هذه القوة، فقد اجتمع جرير والفرزدق عند الحجاج بن يوسف، فقال: "من مدحني منكما بشعر يوجز فيه، ويحسن صفتي؛ فهذه الخلعة له.

فقال الفرزدق:

فمن يأمن الحجّاجَ والطير تتقي عقوبته إلا ضعيفُ العَزَائِمِ

وقال جرير:

فمن يأمن الحجّاجَ؟ أمَّا عقابُه فمرٌّ وأمَّا عقدُهُ فَوثِيقُ

يُسرُّ لكَ البغضاءَ كلُّ منافقٍ كَمَا كلُّ ذي دينٍ عَلَيكَ شفيقُ

فقال الحجاج للفرزدق: ما عملت شيئًا؛ الطير تنفر من الصبي والخشبة"، ودفع الخلعة إلى جرير.

الغرض الثاني: الهجاء:

يقول أبو هلال: "والهجاء أيضاً إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصها النفس، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضاً لم يكن مختاراً، والاختيار أن ينسب المهجو إلى اللؤم والبخل والشره، وما أشبه ذلك، وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قبح الوجه وصغر الحجم وضئولة الجسم، يدل على ذلك قول القائل:

فقلت لها: ليسَ الشُّحُوب عَلَى الفَتَى بِعَارٍ، ولَا خَيرُ الرِّجَالِ سَمِينُهَا

وقول الآخر:

تَنَال الخيرَ ممن تزْدَرِيهِ ويخلف ظنَّك الرجلُ الطَّرِيرُ

الطرير، أي: ذو المنظر الحسن. وقول الآخر:

رأَوهُ فازدرَوه وهو خِرْقٌ وينفعُ أهلَه الرجلُ القَبيحُ

الخرق هو الخريق، أي: الفتى الظريف في سماحة ونجدة.

وذكر السموءل أن قلة العدد ليس بعيب، فقال:

تعيِّرنا أنَّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها: إنَّ الكرامَ قلِيلُ".

ثم أورد أبو هلال أمثلة من الهجاء الجيد بناءً على المقياس المذكور، ومن هذه الأمثلة قول القائل:

اللؤمُ أكرم من وبْرٍ ووالِدِهِ واللؤمُ أكرمُ من وبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قومٌ إذا ما جنى جانيهُمُ أمنوا من لُؤْمِ أحْسابِهم أن يقتلوا قَوَدَا

الوبر: الحيوان المعروف، وهو في حجم الأرنب من ذوات الحافر. وقوله: "أن يقتلوا قَوَدَا" أي: أن يقاد منهم، أي: أن يأخذوا بالقصاص.

ومن الأمثلة التي ذكرها للهجاء الجيد أيضًا قول أعشى الباهلي:

بنو تيمٍ قرارةُ كلِّ لؤمٍ كَذَاكَ لَكُلِّ سَائِلَةٍ قرارُ

القرارات: ما بقي في القدر بعد أن يغرف منها، والقرار: المستقر من الأرض، يقول أبو هلال: "وقد تبعه أبو تمام فقال:

مُلقَى الرجَاءِ، ومُلْقَى الرحْلِ فِي نَفَرٍ الجودُ عندَهُمُ قَولٌ بِلَا عَمَلِ

أضحوا بمستنِّ سيلِ الذمِّ وارتفعت أموالهُم فِي هِضَابِ المُطْلِ والعِلَلِ

المستن أي: المنصب، ونقله –أي أبو تمام– إلى موضع آخر فقال:

وكَانَت زفرةً ثُمَّ اطمأَنَّتْ كَذَاكَ لَكُلِّ سَائِلَةٍ قرارُ".

ومن أمثلة الهجاء الجيد أيضًا قول الطرماح:

لَوْ كان يَخْفَى علَى الرَّحْمَن خافيَةٌ من خَلْقهِ خَفِيتْ عَنْهُ بَنُو أَسَدِ

قومٌ أَقَامَ بِدَارِ الذُّل أولهم كَمَا أَقَامَت عَلَيه جِذمَةَ الوَتَدِ

وقد ذكر البيت الأول أبو هلال، ولم ينسبه.

ثم قال أبو هلال: "ومن المبالغة في الهجاء قول ابن الرومي:

يقتر عيسى على نفسِهِ وليس بباقٍ ولَا خَالِدِ

ولَو يستطيعُ لتقتِيرِهِ تنَفّسَ من منخَرٍ وَاحِدِ

فقد جعل الشاعر مهجوه في غاية التقتير ونهاية البخل والشح، وإذا كان يقتر على نفسه فلا يتنفس الهواء كما يجب، والهواء مبذول له بالمجان، وتنفسه إنما يكون من أجل أن يحيا حياة سليمة، إذا كان هكذا فما بالك بأمره مع الناس؟

والناس يظنون أن ابن الرومي ابتكر هذا المعنى، وإنما أخذه مما حكاه أبو عثمان –أي الجاحظ– أن بعضهم قَبَرَ إحدى عينيه، وقال: إن النظر بهما في زمان واحد من الإسراف" وليس من شك في أن ابن الرومي أحسن الأخذ، وأحسن الوصف والرصف.

الغرض الثالث: الوصف:

ومقياسه عند أبي هلال أن يستوعب أكثر معاني الموصوف؛ حتى كأنه يصور الموصوف فتراه نصب عينك. ومن أمثلته قول الشماخ في نبالة:

خَلَتْ غير آثارِ الأَراجِيلِ تَرْتَمِي تَقَعْقَعُ فِي الآباطِ مِنْهَا وِفاضُها

يقول أبو هلال: "فهذا البيت يصور هرولة الرجالة، ووفاضها في آباطها تقعقع". الوفاض" جمع: وفضة، وهي الجعبة. والأراجيل: الرجال لا ظهور لهم يركبونها. وقوله: تقعقع أي: تتقعقع. ومن الأمثلة التي ذكرها أيضاً قول يزيد بن عمرو الطائي:

ألا من رَأَى قَوْمي كَأَنَّ رجَالَهُم نَخيلٌ أَتَاهَا عَاضِدٌ فَأَمَالَهَا

يقول أبو هلال: "فهذا التشبيه كأنه يصور لك القتلى مصروعين". وقوله: عاضد من قول العرب: عضد الشجرة، أي: قطعها بالمِعْضَد.

الغرض الرابع: التشبيه:

يقول أبو هلال: "وينبغي أن يكون التشبيه دالًّا على شدة الصبابة وإفراط الوجد والتهالك في الصبوة، ويكون بريئًا من دلالة الخشونة والجلادة، وأمارات الإباء والعزة. ومن أمثلة ذلك قول أبي الشيص:

وَقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتِ فليْسَ لي مُتَأَخَّرٌ عنه ولَا مُتَقَدَّمُ

أَجِدُ المَلامَةَ في هَوَاكِ لَذَيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

أَشْبَهْتِ أَعْدائِي فصِرْتُ أُحِبُّهُمْ إِذْ كان حَظِّي مِنْكِ حَظِّي مِنْهُمُ

وأَهَنْتِنِي فأَهَنْتُ نَفْسِي صاغرًا ما مَنْ يَهُونُ عَلَيْك مِمَّنْ يُكْرَمُ

فهذا غاية التهالك في الحب –كما يقول أبو هلال– ونهاية الطاعة للمحبوب".

ويروى: أن مجلسًا ضمَ أبا الشيص، وأبا نواس، ومسلم بن الوليد، ودعبلًا الخزاعي، فاقترح أبو نواس أن ينشد كلُّ شاعر أحسن ما قال؛ فأنشد أبو الشيص هذه الأبيات، قالوا: فجعل أبو نواس يعجب من حسن الشعر، حتى ما كاد ينقضي عجبه. وقد ذكر صاحب (العقد الفريد) هذه الرواية.

الغرضان الخامس والسادس: الفخر والرثاء: لم يبسط أبو هلال القول فيهما سوى أنه عندما انتهى من الأغراض الأربعة؛ وهي: المديح والهجاء والوصف والتشبيه، أوضح أن أغراض الشعراء كثيرة، ومعانيهم فيها متشعبة لا يبلغها الإحصاء، وأكثرها استعمالًا وأطولها مدارسةً ستةُ أغراض؛ هذه الأربعة السالفة والمراثي والفخر، على أن الرثاء والفخر في رأيِهِ داخلان في المديح؛ ولهذا ترك القول فيهما؛ لأن القول في المديح ينصب عليهما، سوى أن بينهما وبين المديح فروقًا تعود إلى شخص الممدوح ونعته، وقد ذكر الفرق بينهما.

ثم استحسن من الخنساء قولها:

فَقَد فَقَدَتْكَ طَلْقَة واستَرَاحَتْ فَليت الخيلَ فارِسُهَا يَرَاهَا

طلقة في البيت: اسم فرس، فقد رأى أن المقبول من البكاء أن يذكر ارتباط الخيل بموت المرثي؛ فقد قال أبو هلال أيضاً: "بل يوصف بالبكاء عليه من كان يحسن في حياتِه إليه، كما قال الغنوي:

ليبكك شيخٌ لم يجد من يعينه وطاوي الحَشَا نَائِي المَزَارِ غريبُ".

ثم ختم أبو هلال ما ذكره من جملة هذه الأغراض، فقال: "فهذه جملة إذا تدبرها صانع الكلام؛ استغنى بها عن غيرها". والمتصفح للصناعتين يرى أمثلة كثيرة، حكم عليها أبو هلال بالصحة أو الخطأ وفق مقياسه السابق الذكر.

إن الناظر في الكتب التي درست منهج أبي هلال، وتناولته بالتحليل والبحث يرى اختلافها في منهجه بين مؤيدٍ ومعارض؛ فالذين أيدوا منهجه يرون أنه التزم المقياس الخلقي في اختيار معاني الشعر، فمن خلال استقرائه لمعاني شعر الأسلاف، والتعرف على مدى تقبُّل النقاد والمتذوقين لها انتهى أبو هلال إلى حصر هذه المعاني في الفضائل النفسية الخاصة؛ فيكون المدح مديحاً وفخراً ورثاءً بالعقل والعفة، والعدل والشجاعة، وما يتفرع منها، ويكون الهجاء بسلب هذه الخصال، ويكون التشبيب بما يدل على الصبابة والتوله.

وفي رأي مؤيديه أن هذا منطقي ناقد، يشرع القواعد ويملي على المنشئين، ويوجههم إلى طريقة الصناعة، ويرسم لهم سبل التفنن، ويرون أن هذا وأمثاله مما هو مبثوث في

كتاب (الصناعتين) دفع بالنقد صوب البلاغة دفعةً قويةً، وإن كان لم يسْلَم من بعض الاعتراض، والمآخذ التي وجهت إليه أيضًا من هؤلاء المؤيدين.

فقد وقفوا أمام رأيه في الوصف، حين رأوا أن أبا هلال تطلب في هذا الوصف أن يستوعب أكثرَ معاني الموصوف، حتى كأنه يريكه نصب عينك، ويرون أن في هذا تشريعًا تحكميًّا، واقتناعًا بالتصوير الحسي مع أن مجال التصوير يتسع لنقل وجدان المنشئ، والإيحاء بإشعاعه الانفعالي إلى المتذوق، ولا ينبغي أن يكتفي في الوصف بتصوير المرائي والألوان والأشكال المحسوسة، بل يجب أن يصحب ذلك تصويرُ الرؤى، وبقدر انطباعها في نفس المنشئ وعمقه وسعته يرجى أن تطبع في نفس المتذوق بالقدر ذاته، والعمق والسعة؛ تسليمًا لنظرية التعاطف الوجداني، وعدوى الانفعالات والمشاعر.

كما نجد من أيده، وأخذ في الوقت نفسه عليه مآخذ؛ فقد روي أن كتاب (الصناعتين) كتاب مفيد جدًّا في الأدب والنقد والبيان؛ لأن أسلوبه أنيق جميل، وعرضه منظم مما يدل على عقلية صاحبه الكبيرة، والثقافة التي يمثلها ثقافة عميقة تدل على علم غزير، وإحاطة واسعة. ورأوا أيضًا أنه كتاب تطبيقي على قواعد البيان، يمتاز بكثرة شواهده ومثلِهِ كثرةً فائقةً مع حرص على جودة الاختيار، وسلامة الطبع؛ مما يرشدنا إلى لون من ثقافة أبي هلال وعقليته، حتى لقد حَارَ بعض الأدباء في تسمية (الصناعتين) كتاب أدب، أو كتاب بلاغة وبيان، والآراء التي جمعت فيه في النقد هي خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع.

وتمتاز بأنها صادرة عن ذوقٍ وطبعٍ وشعورٍ أدبي، وعن حكم العقل والفكر أيضاً؛ ولهذا كان الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس للأدب والنقد والبيان، وإن كانت الصبغة الأولى للكتاب، والهدف الأول من تأليفه أن يكون كتاباً في أصول قواعد البيان العربي، فالكتاب صورةٌ كاملةٌ للبيان العربي حتى آخر القرن الرابع الهجري في نظر كثير من الدارسين، وهذه الصورة اشترك في تلوينها علماء الأدب والنقد والبيان قبل أبي هلال، وفي عصره من شتى الطبقات والثقافات والعناصر.

ويرون أن أبا هلال قد رسم منهجاً جديداً في نقد الشعر، بعد المنهج الذي رسمه قدامة في كتابه (نقد الشعر)، ويرون أن أبا هلال لم يظفر بما ظفر به قدامة من نجاح كامل، وتوفيق كبير حيث كان عالة على قدامة وكتابه، ولكنهم يثنون على أبي هلال بأنه أفرد صناعة الكلام بالتأليف والبحث، مع العناية بالجمع والشرح والاستقصاء في المثل والشواهد، مع إجادة في العرض وتنسيق في الدراسة وحسن الإبانة عن غرضه.

وأخذوا عليه عدم استقلاله بأيِّ رأيٍ ذاتي، فليس له من وجهة نظر من أخذ عليه إلا تنسيق المادة، وترتيبها في فصول، والاستكثار من الأمثلة حيث أخذ عن قدامة وعن الآمدي، وعن الجرجاني وعن الجاحظ، ويرون أن هذه المآخذ لا تنفي الفائدة الكبرى التي يمكن أن تستخلص من كتاب (الصناعتين)، حيث رأوا أن هذا الكتاب رسَّخَ الآراء النقدية التي جاء بها نقاد القرنين الثالث والرابع في نفوس الدارسين، على نحوٍ واضحٍ مبسوطٍ، مزودٍ بكثير من الأمثلة.

ورأى المعارضون له أن أبا هلال حين أخذ عن قدامة أقواله، وبخاصة فيما يتصل بمعاني الشعر وأغراضه؛ فإنه حاول أن يقيّد بها الشعراء ويحصر ميادين قولهم، ورأوا أن هذا التقنين خطر على معاني الشعر وأغراضه، والابتكار فيه، وهو في الوقت نفسه أيضاً خطر على طرق البيان ذاتها.

المصادر والمراجع:

- https://www.ahewar.org/search/Dsearch.asp?nr=3823
- الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال – منهاج البلغاء وسراج الأدباء--(مشروع قراءة) مصطفى الغرافي،
- أساسيات البحث العلمي بين النظرية والتطبيق، حنان سلطان، غانم العبيدي، الطبعة الأولى "الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م".
- أصول البحث العلمي ومناهجه، أحمد بدر ، الطبعة الرابعة، وكالة المطبوعات الكويت ، توزيع دار القلم بيروت، ١٩٧٨م.
- إعجاز القرآن، لمحمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف.
- ألفية ابن مالك في النحو والصرف، محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، دار الكتب العامة، بيروت، الطبعة الثانية ،١٩٨٥م.
- البحث الأدبي طبيعته- مناهجه- وأصوله- مصادره، د. شوقي ضيف ، دار المعارف، الطبعة السابعة.
- البحث العلمي حقيقته ومصادره ومادته ومناهجه وكتابته وطباعته ومناقشته، عبد العزيز الربيعة، مكتبة العبيكان، الطبعة السادسة، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان.
- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان (أجزاء).
- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج١٢،١٩٢.
- تراثنا المخطوط من التأليف إلى الوراقة : د. على الخطيب.
- جهود إبراهيم أنيس الصوتية من خلال كتابه الأصوات اللغوية، محمد يحي آدم، رسالة ماجستير ، جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣.
- دراسات في الأدب العربي: محمد مصطفي هدارة، دار العلوم العربية، الطبعة الأولى ،١٩٩٠م.
- دراسة في مصادر الأدب، أحمد الطاهر مكي، دار الفكر العربي، ط٨ ،١٩١٩ /١٩٩٩م.
- سيبويه حياته وكتابه، أحمد أحمد بدوي، مؤسسة هنداوي.
- في النقد الأدبي، إيليا الحاوي، ج ١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٤.
- قراءة في معجم أساس البلاغة للزمخشري، وسام اليونس، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، تاريخ النشر:١/٤/٢٠٢٢.

- مبادئ في اللسانيات، خولة طالب الإبراهيمي، دار القصبة ، الطبعة الثانية، ٢٠٠.
- المدخل إلى علم الببليوغرافيا، أبو بكر محمود الهوش، منشورات الكتاب والتوزيع والإعلان والمطابع، طرابلس ١٩٨١، الطبعة الأولى.
- المدخل لمصادر الدراسات الأدبية واللغوية والمعجمية القديمة والحديثة، حامد صادق قنيبي، محمد عريف الحرباوي، دار ابن الجوزي، الأردن /عمان.
- المعجم العربي (الموسوعة الصغيرة(٨٠)، حسين نصار، منشورات دار الجاحظ للنشر ، وزارة الثقافة والإعلام بغداد، ١٩٨٠.
- مناهج النقد الأدبي المعاصر، صلاح فضل، دار النشر أطلس للنشر والإنتاج والتوزيع ،القاهرة، ٢٠٠٥ م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني، محمد الحبيب بن الخواجه.
- نشأت المعاجم العربية وتطورها (معاجم المعاني، معاجم الألفاظ)، ديزيره سقال، دار الصداقة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥.